# بطولة المكان

# في روايتي الأيدي الناعمة وشباب إمرأة

إعداد

دكتور / محمد محمد موسي أبو جبل
مدرس بقسم اللغة العربية
كلية الآداب – جامعة أسيوط

## مقدمة

لكل أمة عريقة في المجد تاريخ تستوحيه ، وماض تفخر به ، وأبطال تنسج حول أسمائهم قدراً كبيراً من الاحترام والتبجيل ، تخلدهم في بطون الكتب وخبايا القلوب ، وتمجدهم بما تصوغه حولهم ،من حكايات تجاوزت المنطق والمعقول- وهذا نابع من شدة الحب – تظهر تفردهم وشجاعتهم الفائقة ، مشيدة بما يتحلون به من أخلاق سامية، وسجايا رفيعة. [1]

وقد ظهر في نتاج الأدباء والفنانين أعمال دارت حول عظمة هؤلاء الرجال ، الذين أفرزتهم أمتهم في كثير من المجالات . ولعل أوضح تمجيد لهؤلاء ، ما جاء في الروايات التي كتبها عباقرة الأمة ؛ ذلك لأنهم لا يتحدثون عن البطل بصورة مباشرة ، وإنما بصورة إيحائية ، يجود بها المبدع ، ومن هذه الإبداعات الرواية ....

وإن أكثر الروايات تستقي أشخاصها وأبطالها من هؤلاء الذين مجدهم التاريخ، وأشاد بهم ، وتحول بعضهم إلي أسطورة ، وأصبح صالحاً لأن يكون بطلاً في رواية .

ومعلوم أن الشخصية في الرواية نوعان : ثانوية ، ومحورية . والشخصية المحورية في الرواية هي الصورة التقليدية للبطل ، حيث يقوم شخص من أشخاصها مثلاً بدور البطولة فيركز الروائي اهتمامه على تصوير أبعاد شخصية البطل ، وتكون هي محور الرواية ، والرابطة بين مختلف شخوصها ، متمتعاً بفضائل ينفرد بها ، دون جميع الناس .

وقد تطورت صورة البطل بشكل عام في الآداب العالمية ، من شخصيات يمثلون كمال الفرد الإنساني إلي شخصيات من غمار المجتمع، ليست لها صفات التفرد أو التفوق .[2] بفعل بعض عوامل التغير التي تطرأ على المجتمعات ..

---

[1] موسى سليمان – الأدب القصصي عند العرب – ط/ ٤ سنة ١٩٦٩م . ص ٨٦ بتصرف .
[2] أحمد إبراهيم الهواري - البطل المعاصر في الرواية المصرية - دار المعارف ١٩٧٩ م - ص ١٦، ٤٣ - بتصرف .

وقد لا تكون البطولة فردية كما نرى ذلك مثلاً في رواية " عذراء دنشواى " فإن القارئ للرواية يستشف افتقاد البطل الفرد ؛ إذ أن تلك الفئات الشعبية التي عبرت عنها هذه الرواية – طبقة الفلاحين – كانت من التهافت بحيث لا تشكل موقفاً محدداً يعبر عنه " زعيم" أو " بطل "[1] .

وواضح أن المؤلف اتخذ من مأساة دنشواي مادته الخام ، معبراً بها عن أزمة هذه الطبقة ، حيث عبرت " عذراء دنشواي " أصدق تعبير عن سذاجة " البطولة الشعبية " آنذاك ، وهي البطولة التي تشير إلي أن المقاومة في صدور المصريين مرجل يغلي في الأعماق، قد تعلوها أحياناً طبقات من الصدأ ، وما يشبه النسيان أو التخاذل إلي درجة اليأس ، لكن ما إن تنفجر الأرض بأزمة ضارية حتى ينفجر البركان المنزوي في الصدور[2] .

وإذا كان هناك من يتصور أن العمل الإبداعي السردي يتألف من ثلاثة عناصر هي: الشخصية ، الحدث، المكان، ويرى أن التعامل مع عنصرين منها دون العنصر الثالث يشبه نزع رجل من طاولة ذات ثلاثة أرجل ، كما أنه يسربل العمل الإبداعي بغموض يصعب على القارئ تلقيه .[3]

فإني أضيف إلى هذا القول أن هناك عناصر أخرى للعمل الإبداعي مثل الزمان، والسرد ، والحوار ، والصراع ... كما أني اتفق معه في أهمية التعامل مع كل العناصر لكن مع التسليم باختلاف دور كل عنصر من عمل إلى آخر ؛ ومن ثم ضرورة التركيز على إظهار العنصر الأكثر تأثيراً في العمل المنقود ، وذلك إن أردنا بيان البطولة في هذا العمل .

---

[1] محمود طاهر حقي - عذراء دنشواي - الدار القومية ١٩٦٤ ص ٢٩ ، ٤٣ – ٤٥ .
[2] د/ أحمد إبراهيم .. البطل المعاصر في الرواية المصرية ص ٨٠ بتصرف .
[3] محمد جبريل – مصري المكان - .. فبراير ١٩٩٨م ص١٠ – ١٢ بتصرف .

إن عنصر المكان مثلاً في العمل القصصي عادة لا يوصف لذاته أو لـــتأكيد القدرة على ذلك ؛ هذا لأن المكان جزء عضوي في الرواية ، خيـــوط فـــي نـــسيجها ، يضيف إلى دلالاتها وإيحاءاتها وصورتها الكلية ، تنتفي فيه الملامح العامـــة للمكـــان ، وتصبح له خصوصية، وتتشكل فيه صدقات وذكريات ..

إنه في العمل الأدبي يتحول من الثبـــات ، الـــسكون ، الجمـــاد ، إلـــي ديناميكيـــة متحركة، يتحول من مجرد إطار ، أو أرضية ، إلي عنصر مشارك في العمل الأدبـــي، إلي واحد من أبطاله ، بل إنه قد يصبح هو البطل الأول ، أو الأساسي ..[1]

كما أن للمكان قيمته في أنه يهبنا الإيهام بالواقع فلا يصبح العمـــل الفنـــي مجـــرد خيال[2]

وإذا كان بعض الكتاب قد جعلوا من المكان بعداً رئيساً في أعمالهم ، فلعلـــه يمكـــن وضع نجيب محفوظ في مقدمة هؤلاء ؛ إذ أن المكان هو " الشخصية المحوريـــة " فـــي بعض رواياته مثل خان الخليلي ، زقاق المدق ، السكرية ... ومن هنا تـــراه يقـــول : " المكان عندي له بطوله "[3]..

خذ – مثلاً – زقاق المدق ، تجده ليس مجرد اسم لروايـــة ، ولكنـــه (شخـــصية) رئيسية في الرواية ، إنه الوعاء المحدد الذي يحتوى سكانه ، بظـــروفهم الاجتماعيـــة، والثقافية، والنفسية ... إنه الشخصية الرئيسية والتي تلقى بظلهـــا علـــى الشخـــصيات ، والأحداث، بحيث يخضعها لظروفه ، دون أن تخضعه لظروفها ..

فمثلاً هل كان أحمد أفندي عاكف يشعر بدبيب الحب الغائب عن حياتـــه أربعـــين عاماً– هي كل عمره – لولا النافذة التي تطل على نافذة الجيران في خان الخليلـــي ؟ ..

---

(1) المرجع السابق ص ٧ – ٩ بتصرف .
(2) المرجع السابق ص ١٦ – ١٧ بتصرف .
(3) المرجع السابق ص ١٢ – ١٣ بتصرف .

وهل كان يتحاح لفهمي عبد الجواد ومريم حواراتهما الساذجة ، لـولا التقـاء سـطحي بيتيهما.[٤] ؟

واختيار نجيب للزقاق – بوصفه قطاعاً شعبياً – واهتمامه بهذه الشريحة البـشرية والجغرافية لا يجعله مهتماً بالتركيز على بطل فرد ، بل " يوزع " اهتمامه على مختلف زوايا الزقاق ويحاول أن ينفذ إلي أعماقه ، ومن هنا يكون اهتمـام الكاتـب بالزقـاق ، بوصفه البطل الحقيقي الذي يدفع بشخصياته إلي {الخروج} ، وفي الوقت نفسه " يجذب " شخصيات أخرى ، تلعب دوراً في مصير شخصيات الزقاق...[١] .

ولنترك الآن حديثنا العابر عن رواية زقاق المدق ، باعتبارها مثلاً لأثـر المكـان الواضح في الشخصيات والأحداث .

وليكن حديثنا الآن مفصلاً عن بطولة المكان مـن روايتـي "الأيـدي الناعمـة"، " وشباب امرأة " ؛ إذ أن سيطرة المكان على الشخصيات والأحـداث سـيطرة آسـره ومتحكمة ، أكثر مما في روايات نجيب محفوظ السابقة .

---

[٤] المرجع السابق ص ١٦ بتصرف .

[١] د/ أحمد إبراهيم – البطل المعاصر في الرواية المصرية - .. ص ١٢٤. وراجع في ذلك أيضا قضية الشكل الفني عن نجيب محفوظ لنبيل راغب .. ص ٩٩ ، مجلة الهلال ، نوفمبر ١٩٦٤م لمحمود أمين .. ص ٦٠ .

# بطولة المكان في "الأيدي الناعمة"

## بطولة المكان في "الأيدي الناعمة"

تطالعنا هذه الرواية بالبرنس فريد ، الذي كان ممن جردتهم الثورة من ألقابهم ، وأموالهم ؛ ليعملوا مثل الآخرين ، بينما كان لا يزال مصراً على أن يكون من ذوي الأيدي الناعمة ، وعلى الاعتقاد بأن العمل إنما هو للعبيد والخدم ، وقد سمح له بالإقامة فقط في قصره ، دون التصرف فيه ، حتى أصبح لا يملك قوت يومه ، ومع ذلك رأيناه يأتي من خلال أحداث الرواية بتصرفات ، تتسم بالكبر والغرور والمكابرة والغطرسة والأنانية وإليك بعض هذه التصرفات المتبوعة ببعض التعليقات :

١- في بداية الرواية يضع في فمه سيجاراً كبيراً ، غير مشتعل وهو على شاطئ النيل، قرب قصر العيني – الذي يقع قريباً من قصره – ثم يلتفت إلى الدكتور على حمودة[١] الذي كان جالساً على الحاضر الحجري ، المطل على النيل ، محاولاً التعرف به ويفحصه "بالمونوكل" ثم يقترب منه قائلاً بلهجة الآمر : "كبريت"[٢] .

من هذا التصرف ترى من الوهلة الأولى ما ينبئ عنه من الكبر والمكابرة، ومن تجاهل لواقع الحياة الجديد ، ورفض له ، وتمسك بواقعه المندثر ، الذي لم يعد له وجود إلا في داخل نفسه .. حيث لم يشأ أن يعترف من داخله بأنه في حاجة إلى من يسدي إليه معروفاً بإعطائه كبريتاً ، بل تراه بدلاً من أن يتصرف تصرف المحتاج إلى الشيء يقوم بفحص من يظن أن معه هذا الكبريت بالمونوكل ، ثم يخاطبه بلهجة الآمر : "كبريت معتقداً أن هذا من حقه على الناس . وقد شجعه بالطبع على أن يكون بهذه الصورة استمرار إقامته في قصره ، الذي شهد ما كان عليه من أمجاد وعظمة وكبر .

٢- بعد أن يقول لبائع الذرة .. بكم تشتري الكوز من الغيط بشرفك ..؟ إن كان عند مثلك شرف[٣]؟! يبتعد بكوزه عند دفع ثمن الكوزين .. قائلاً للدكتور: ادفع له ..

---

(١) حاصل على درجة الدكتوراه في علم النحو من كلية الآداب لكنه لم يجد عملا في ذلك بسبب ندرة تخصصه .
(٢) توفيق الحكيم – الأيدي الناعمة – القاهرة ط ١٩٤٥ – ص ٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩ .

الأمراء كالملوك ، لا يحملون نقوداً ..[١] .

وفي هذا التصرف تراه أولاً يشك في أن يكون لدى أمثال بائع الذرة شرف كما تراه ثانياً لا يعترف بإفلاسه ، وبأنه لا يملك ثمن كوز الذرة بل يكابر ويظل على تمسكه بماضيه ، الذي يتوهم أنه ما زال يعيش فيه فيقول : الأمراء كالملوك ، لا يحملون نقوداً .

٣- عن موقف الأولاد من الآباء يقول (للدكتور) : حقاً .. أولادنا لا يجلبون لنا غير المصائب .. تصور ابنتي "مرفت" التي ربيتها في العز ، .. جلبت لي العار .. وصيرتي أضحوكة في الأسرة .. ولم يعجبها خطيبها النبيل مدحت .. وأحبت شاباً قذراً .. هو ميكانيكي في جراج ، كانت تصلح فيه سيارتها الكابر يوليه.. وتزوجته.. على الرغم من أنفي.. وأنجبت منه ثلاثة أولاد.. الأدهى والأمر أن أختها الصغرى تركت بيتي منذ عام هي الأخرى.. بعد عيد ميلادها الثامن عشر وقررت اللحاق بأختها والسكن معها .. تتركني وحيداً مع الخدم .. فزوجتي ماتت من سبع سنوات .. من أثر الصدمة .. وصدمة الفضيحة والعار .. "يبصق في الأرض"[٢] .

وهنا يبدو البرنس في قمة تكبره واستعلائه ، حيث يرى في مجرد زواج ابنته ، من شاب ليس من طبقة النبلاء أو الأمراء ليكون كفؤاً لها ، بل هو مجرد شاب عامل ميكانيكي ، من طبقة الشعب كان يصلح سيارتها الكابر يوليه ، يرى فيه فضيحة كبرى وعاراً شديداً ، سبب له ولزوجته صدمة قاسية ، أدت إلى موتها وإلى شعوره بأنه أصبح أضحوكة في أسرته[٣] مما ضاعف من حنقه وغضبه ، خاصة بعد أن لحقت بها أختها الصغرى ، وتركته وحيداً في قصره مع الخدم .

---

[١] المرجع السابق ص ٢٣ .
[٢] المرجع السابق ص ٢٤ .
[٣] ولم يتغير موقفه من هذا الشاب حتى بعد علمه أنه أنجب منها ثلاثة أولاد ..

هذا القصر المقيم فيه – الذي سيأتي حديثنا عنه وعن أثره عليه مفصلاً – والذي ظل مشدوداً إليه أسراً فيه ، لأنه يمثل ماضيه التليد ، ويرى فيه حاضره البئيس ، وبالتالي فهو لا يريد أن يواجه نفسه بالحقيقة المرة بالنسبة إليه ، وهي أنه باختصار أصبح صاحب ماض ضائع ، وحاضر واهم .

هذا القصر الذي عاصر أمجاده ، وعاش فيه ماضيه ، مازال يعيش فيه حاضره الواهم ، بكل ما يضمه هذا القصر من أشياء تاريخية ، مازال يجد نفسه فيها .. ومن هنا ظل على اعتقاده بأنه من طبقة خاصة – طبقة الأمراء والنبلاء – وبالتالي تبدو الحكمة ويظهر الدافع من وراء تصرفاته .

٤- عندما تأتيه أبنته مرفت مع زوجها في سيارتهما ومعهما أختها الصغرى وتقول له بأنها وزوجها تحت تصرفه وأن زوجها أصبح صاحب جراج كبير ، ومصنع لعمل "شاسيهات" السيارات وأنهما يسكنان في فيلا يملكنها في المعادي ، ولديهما ثروة كبيرة : يقول بخشونة "كل هذا لا يهمني.. يالسخرية الأقدار! هذا الشاب القذر الحقير يريد أن يتصدق على أسياده[1] .. إلخ .

وهكذا تفشل أبنته في إقناعه بأن يتخلى عما هو عليه ويقبل مبدأ العيش الكريم معهم ؛ بما بينهم من صلة الرحم ، في الوقت الذي كان يخفي فيه كوز الذرة ، الذي اشتراه له الدكتور حمودة ، والذي لم يكن قد انتهى من التهامه .

وهنا أيضاً تراه يصر على إخفاء واقعه المر ، وهو أنه لا يملك حتى ثمن كوز الذرة الذي كان يخفيه ، والذي كان بسبب الجوع في أشد الحاجة إلى التهامه ، كما يرفض مبدأ المساعدة من زوج ابنته ، ويقول له في تعجب وغطرسة : يالسخرية الأقدار!.....

---

[1] توفيق الحكيم – الأيدي الناعمة – القاهرة ، ط ١٩٥٤م ص ٣١ .

هذا الشاب القذر الحقير يريد أن يتصدق على أسياده! مما يؤكد رفضه للواقع الجديد وتعلقه بماضيه المندثر .

٥- يقول للدكتور حمودة (بعد انصراف ابنته وزوجها وأختها ، وهما مازالا على شاطئ النيل قرب قصر العيني) : العرق دساس .. أمهما!.. كان فيها عرق مصري.. بلدي .. أبوها كانت أمه جارية من هنا .. من بنات البلد[٢] ..

وهذا القول يؤكد بالطبع نظرة البرنس الطبقية المتعالية نحو أبناء الشعب المصري البسطاء .

تلك النظرة التي ورثها عمن سبقه ، من خلال ما كان يحيط به من سلطة ، وأبهة، وخدم ، وحشم .. حيث ظل قصره المقيم فيه والذي شهد ذلك كله دافعاً له على الاستمرار في تلك النظرة المتعالية .

٦- بعد أن يعرض على الدكتور أن يشتري له بعد كوز الذرة طبقاً من البسبوسة وفي أثناء تناوله له يغافل بائع البسبوسة أكثر من مرة ويغرف من السمن الذي في الوعاء إلى طبقه ، وعندما ينتبه البائع ويبعد الوعاء يقول له البرنس : يظهر أنك عديم الذوق .. قليل الطهي .. "للدكتور" ادفع له حسابه بسرعة .. بسرعة! ثم يقول وهو يمشي إلى مكانه الأول قرب النيل " : أنا لا أعرف التفاهم مع هذه الطبقة .. أبداً[١] .

ومع هذا التصرف من البرنس تبدو صفة الأنانية وحب النفس والتحاليل ، مع التمسك بمكابرته وتعاليه على الناس ..

٧- عندما قبل الدكتور عرضه بأن يوفر نقوده التي يدفعها في الفندق ، ويأتي معه لينام في أي حجرة من حجرات القصر الخالية إذا به يقول له : انتظر حتى أشعل السيجار .. هذه عادتي بعد العشاء .. أدخن سيجاري الهافانا .. ثم يظهر علبة

---

[٢] المرجع السابق ص ٤١ .
[١] نفسه ص ٤٨ - .

كبريت من جيبه قائلاً : أخذتها برشاقة من أمام بائع البسبوسة ، منكراً وصف الدكتور لهذا الفعل بالسرقة ؛ حيث قال له : "وهو يشعل سيجاره بالكبريت "هذا بالنسبة إليك أنت وأمثالك يعتبر سرقة .. أما بالنسبة إلينا نحن أولياء النعم الأمراء والملوك فنأخذ من الناس ما نريد ويعتبر هذا حقاً لنا ، وتشريفاً لهم[٢] .

وهنا يعلن صراحة عما تكون في داخله وما زال يعيش فيه ، بحكم استمرار إقامته في قصره الفخم فيتمسك بتدخين هذه النوعية من السيجار ويعلن بأنه من طبقة خاصة .. طبقة أولي النعم .. فيأخذ من الناس ما يريد ويكون ذلك حقاً له وتشريفاً لهم.

ولا يريد أن يسمع لصوت الحق والحقيقة من الدكتور ، بأن هذا الفعل الذي قام به إنما هو سرقة ، بل تراه يكابر ويتحايل ويأخذ الكبريت برشاقة من أمام البائع ، دون أن يراه ثم يدعي ما ادعاه إيهاماً لنفسه وللآخرين بأنه ما زال يعيش فيما كان يعيش فيه .

ولاحظ المفارقة التي وقعت بين تصرفه وهو يسرق السمن والكبريت من بائع البسبوسة ، وما قاله آنفاً لبائع الذرة ، عندما شكك في أن يكون لدى أمثاله شرف ، فقد أوحى إليه القصر أيضاً أن يكون محاسباً للناس ولا يحاسبه أحد .

٨- عندما دق جرس باب القصر ، واستيقظ البرنس أيقظ الدكتور ليفتح الباب ولما قال له : افتح أنت يا صاحب السمو السابق وعاد إلى نومه ، قال له البرنس : شيء جميل! .. حسنة وأنا سيدك! .. أنت لست هنا في فندقك الحقير بحي سيدنا الحسين.. أنت الآن هنا في قصري الفاخر يا دكتور ، .. تفهم ذلك جيداً يا دكتور.. وانهض بسرعة يا دكتور ! ..

ولما تحرك الدكتور، نحو الباب الكبير قال له البرنس : لا يا دكتور .. ليس الباب الكبير .. هذا جرس باب الخدم "السرفيس" .

وهنا قال له الدكتور: "بصوت ذي مغزى" فهمتك .. [١] .

---

[٢] نفسه ص ٥٥ ـ ٥٦ .
[١] نفسه ص ٥٨ ، ٦٢ .

ومن خلال هذا الحوار يتضح أن نظرة البرنس المتعالية وغطرسته شملت حتى صديقه الدكتور ، فاعتبره خادماً له في قصره الفاخر ، الذي خلا من هؤلاء الخدم إلا أن البرنس بحكم استمرار إقامته فيه ، لا يريد أن يتصور أن يكون بدون خادم ، بعد هجرهم له ..

وبعد : فبرغم تجرد البرنس من اللقب والمال والجاه والسلطان ، وهجر بنتيه له ، وموت زوجته ، وانصراف الخدم عنه لفقره ، وبقائه وحيداً في قصر ، لا يملك حق التصرف فيه ، إلا أنه ظل يأتي كما رأينا بهذه التصرفات ، بما تحمله من ألفاظ ومعاني ، تتسم بالكبر والأنانية والغرور والغطرسة والمكابرة . فما الدافع الذي يجعل هذه الشخصية المحورية تقوم بهذه التصرفات ، رغم افتقاد ما قد يكون مبرراً لها ؟

إنه المكان . نعم إنه ذلك القصر الذي ظل مقيماً فيه ، لا يبرحه بكل ما يضمه ذلك القصر من أشياء وما تحمله تلك الأشياء من ذكريات ومشاهد وعلاقات تحمل طابع الملك والسلطة والأبهة وتصبح لها خصوصيتها الاجتماعية والثقافية والنفسية حيث وجد نفسه فيها ، ولم يشأ الخروج منها إلى الواقع الاجتماعي الجديد أو حتى التعرف عن قرب على ما قد طرأ على الحياة من حوله .

وهذا ما نستخلصه من بعض مشاهد تلك الرواية المتمثلة فيما يلي :

أولاً : من حيث القصر وما يضمه من أشياء وما تحمله تلك الأشياء من ذكريات ومشاهد وعلاقات .. وجد نفسه فيها ولم يرد الخروج منها :

١- في أرقى أحياء القاهرة وبالقرب من النيل ، قرب قصر العيني يقع قصر البرنس الفخم الضخم ، في جاردن سيتي ، حيث يشتمل على أكثر من عشرين حجرة مع بهو فاخر الرياش والتحف والأساس ، به سلم كبير يؤدي إلى الطابق الثاني ، الذي يشتمل على غرف نوم رائعة مؤسسة .. كل غرفة تتسع لأكثر من سريرين ، وكومودينو وشيفينير ، كما به أربعة حمامات فاخرة .

أما الطابق الأول فبه قاعة الطعام ، والصالونات المجهزة ، وحجرة المكتب ، ونحو ذلك ، بجانب ذلك البهو ، بما يضمه من أرائك ، مع باب كبير يصل البهو بحديقة القصر الجملية ، وباب آخر خاص بالخدم[1] .

ومن خلال هذا الوصف للقصر يمكن أن نتصور مدى ما كان يتمتع به البرنس من عز وجاه ومتعه وسلطة .. خاصة إذا تخيلنا أن كل وسائل الراحة والنعيم كانت متوفرة في قصره وأنه كان لا يكلف نفسه عملاً أو عناء عند طلبه لأي شيء ؛ فقد كانت يده لا تعرف سوى الضغط على زر الجرس ولبس القفاز ، مع رائحة العطور المنتشرة [2] ..

وهنا نرى أن هذه الرياش الثمينة وما يحويه القصر كان قيداً يشده دائماً إلى عدم الخروج من القصر بفكره ليطالع الحياة الجديدة ، وما تقتضيه من عمل ، وهكذا عاش أسيراً لهذا القصر .

٢- عندما أراد أن يمن على الدكتور بإيواء قصره له رأينا الدكتور يكاشفه بقوله له :

ليس هذا فضلاً منك .. كما توهمت أنا ليلة دعوتني إليه منذ يومين .. لو كان دافعك مجرد الكرم لما دخلته في حياتي! .. ولكن الخدم والحشم قد هجروه ، وأصبحت فيه وحدك ، .. وأنت معتاد أن تخدم .. أليس كذلك؟ .. أنت وحدك في قصر فخم ضخم .. تجلس الآن في حجرتك وتضغط على زر الجرس فما من مجيب .. أتذكر الليلة الأولى يوم دخلنا ، وصعدت أنت إلى حجرتك ، في الطابق الثاني .. ولم يمض من الليل قليل حتى نسيت أنت حاضرك وأخذت تضغط على زر الجرس ، تطلب الخادم ليسقيك كوب ماء .. فنصحتك أن تترك حجرتك النائية.. وأن تتخذ هذا البهو الواسع مكاناً لنومنا وجلوسنا .. ليلبي أحدنا طلب الآخر ونكون بقرب الباب الكبير ! أتذكر ؟ [3] .

---

[1] المرجع السابق ص ١٧ ، ٥٧ ، ٩٧ .
[2] المرجع السابق ص ١٠٢ .
[3] الأيدي الناعمة ص ٦٠ – ٦١ .

وهنا نتفق مع ما جاء في مكاشفة الدكتور للبرنس ونضيف إليه باختصار بأن هـذا القصر بما يضمه من أشياء هو المسئول هنا عن دفع البرنس للتعلق بماضيه ، ونـسيان حاضره .

كما نجد أن مكاشفة الدكتور للبرنس محاولاً إعاشته في حاضره التعيس لم تنجح ، لأن الماضي كان أكثر إغراء له ، حيث يشاهده في كل محتويات القصر من حوله .

٣- رأينا البرنس يقول للدكتور من المصلحة أن نتعاون بكل همة وصفاء ذمة للعثور على ما يخدمنا بدون عمل .. هذا هو الوضع الذي اعتدنا عليه . الوضع اللائق بنا.. أليس كذلك ؟.... [١] .

وفي هذه الفقرة أيضاً نرى البرنس يؤكد ما ذهبنا إليه من تعلقه بماضيه وتناسـيه لحاضره بسبب جو القصر الذي مازال محيطاً به والذي يرتاح إليه ولا يريد الخـروج منه حيث يصرح بأن ، هذا هو ما اعتاد عليه وهو ما يليق به .

٤- أعلن البرنس عن تسكين القصر ، بدون ثمن ، بهدف إبلاغ من يسكنه بأن المقابـل هو

أن يكفل له الأكل والشراب والخدمة وحق الدخان ولما دق جرس الباب تحرك البرنس مرتبكاً قائلاً للدكتور: الإعلان .. أسرع .. انتظر .. أتقابلهم هكذا .. بالبيجاما.. أنا عندي الروب دي شامبر "يرتدي في الحال روبه" ثم يقول للدكتور الحائر الذي ليس لديه روب : إذن البس " الجاكتة " فوق بيجامتك .. فيرى الدكتور بعد

لبس "الجاكتة" أن شكله غير مناسب لفتح الباب فيقول له البرنس : بل مناسب جداً لفتح الباب[٢] .

---

[١] نفسه ص ٨٥ .
[٢] نفسه ص ٦٦ ـ ٦٧ ، ٩٣ .

وهنا تناقض بين المظهر الكاذب والحقيقة المرة ، فقد سعى إلى أن يجلب للقصر سكاناً ولا يأخذ منهم في مقابل ذلك إلا الطعام وهذا يدل على الدناءة التي لا تتواءم مع الغطرسة ، التي يبديها دائماً .

وهكذا ترى البرنس يتحايل من أجل أن يظل مخدوماً وألا يدفع ثمناً لما يتناوله ، وفي الوقت نفسه يحرص على البروتوكول المتعارف عليه عند الطبقات الراقية فلا يخرج الفرد منهم من حجرة النوم بالبيجامة بل لا بد أن يقابل الناس بثيابه الكاملة .

ثانياً : من حيث أن لم يشأ حتى التعرف عن قرب على ما قد طرأ على الحياة من حوله رأينا منه التصرفات الآتية :

١- عندما أخبر الدكتور البرنس أنه يطلب أي عمل في الدرجة الخامسة (لأن شهادة الدكتوراه التي يحملها تعادلها لها) ، قال البرنس معبراً عن عدم معرفته لمثل هذه الأمور : الدرجة الخامسة ؟ ما هي الدرجة الخامسة ؟ [١]

٢- عندما شعر بالجوع وأكل من كوز الذرة ، الذي اشتراه له الدكتور وعرف أن هذه الذرة لذيذة ومغذية قال عنها مخاطباً الدكتور: أنا لم أكن أعرفها .. مع الأسف الشديد .. كنت أمر بسيارتي من هنا ، وأصادف هذه العربات ، وهؤلاء الباعة بملابسهم الممزقة ، فتشمئز نفسي .. وأحسبها شيئاً قذراً .. من أين لي أن أعرف أن ما احتقرته هو في الواقع شيء ممتع ومفيد .. "يقضم كوزه بنهم"[٢]

وتصريحه هنا بأنه لم يكن يعرف طعم الذرة إنما يفيدنا بتعاليه عن الواقع ، وأن الجوع هو الذي ألجأه لعرفة طعمها .

٣- عندما كان معه كوز الذرة وبالقرب منه الدكتور ونادت عليه ابنته مرفت : بابا .. أرجوك .. اسمعني .. دقيقة واحدة ! وقال لها أبوها البرنس : أعرف ما ستقولين.. قالت له مرفت : لا أنت لا تعرف بعد شيأ مما سأقول .. لأن هناك

---

[١] نفسه ص ١٥ .
[٢] نفسه ص ٢٦ .

أشياء كثيرة قد حدثت لا تعلمها .. لأنك لا تريد أن تعلم عني شيئاً[٣] .

حيث ترى أن ابنته مرفت تعلل عدم معرفته بأمورها بأنه لا يريد أن يعلم عنها شيئاً – فهي تؤكد بذلك كما سبق القول – رفضه للواقع بتعاليه عنه .

وهكذا يمكن القول بأن استمرار إقامة البرنس في هذا القصر جعله يعيش أسيراً في الماضي ، ولا استطيع الخروج منه إلى الواقع الحزين الذي يحياه .

ولو افترضنا أن الثورة أخذت منه هذا القصر ولم تسمح له باستمرار الإقامة فيه لما وجد ما يشده إلى ماضيه ويبعده عن حاضره .

ولكن وجوده في القصر جعله ينفر من واقعه ولا يعترف به كما رأينا .

وبعد :

هل ظل البرنس على حاله أم تغير؟ وإذا كان قد تغير فكيف كان التغير ؟ وما نوعه ؟

من متابعة هذه الرواية نرى أن البرنس قد تغير كثيراً حتى كأنه قد أصبح رجلاً آخر .. لقد تغير إلى الأحسن ، تخلص من تلك السمات البغيضة ، التي عرفت من تصرفاته وأحب العمل والحياة ونظر إلى الواقع ، وبدأ يعيش فيه بل عرف الحب .. وأحب العمل وأدرك قيمته ، وأقدم عليه وشعر بقيمة الروابط الإنسانية بين البشر .

ومن هنا تدفق من قلبه شعور الحب والشوق والتسامح والرضا نحو بنتيه .. كما شعر بقصوره وتقصيره نحو زوج ابنته مرفت ، ومدى حاجته إلى رضاه والتعاون معه خاصة بعد أن أحب أخته كريمة ! .. .

فما الذى أدى إلى ذلك كله ؟

إنه أيضا – فيما أرى – المكان ! نعم إنه القصر الذى كان له الدور الأكبر فيما كان عليه البرنس ، وفيما صار إليه ، حيث أن جو القصر قد اختلف بعد سكن كريمة

---

[٣] نفسه ص ٢٩ .

ووالدها فيه ، وقبولهما لمبدأ التعامل مع البرنس على أنهما أقرباء وليسا مستأجرين – تحقيقا لرغبته حتى لايكون قد فعل محظورا بتأجير القصر – وهكذا اعتبر كريمة ابنة عمه كما اعتبر أباها عبد السلام عما له ...

هذا الاختلاف فى جو القصر بدا أولا فى تخطى كريمة ووالدها لبعض الحواجز ، التى كانتتحيط بالبرنس بقبولهما لإعلانه عن تسكين القصر ، وللشروط التى وضعها للسكن فيه .

كما بدا ثانيا فيما امتازت به كريمة فى عينى الرنس من تقديمها للخدمة، وإعداد الطعام ، وحسن المعاشرة ، والأدب الحسن ، والوجه الحسن ، ومن تحرك فى كل أرجاء القصر صباح مساء بهمة ونشاط باعتبارها المسئولة أمام ساكنيه عن تدبير أمر القصر بمن فيه وما فيه .

كما بدا الاختلاف فى جو القصر ثالثا فيما أضفته كريمة ووالدها على القصر – نتيجة لما سبق – من جو أسري ، صحي ، ممتع ، تمثل فيما بدا فيه من حيوية ونظافه وتنسيق وجمال ومؤانسة وحركة ونشاط مع المشاركة فى العمل والمناقشة والحوار وتناول الطعام والشراب .

وهكذا رأيناالقصر قد اكتسى حلة جديدة راقت فى عينى البرنس ، ورآه على هيئة لم يكن يألفها ؛ مليئة بالحركة والحياة والنشاط فاستطاع القصر فى حلته الجديدة أن يأخذ معه البرنس فى طريق التغيير والتجديد فبدا فى هيئة أخرى .

كل ذلك أدى إلى تكوين عاطفة التآلف والتقدير والحب فى قلب البرنس نحو كريمة إحساسا منه بقيمة ماتقوم به من عمل وتدبير ونشاط ، وما تتصف به من صفات ، بجانب إحساسه بالرضا والسرور نحو ما بدا فى جو القصر مما ذكرناه .

وهكذا بدأ البرنس يألف هذا الجو الجديد فى قصره ، والذى كان محروما منه كما بدأ يشعر مع نمو عاطفة حبه نحو كريمة بمدى حاجته إلى هذا الجو الأسرى الجديد ، الذى قد لا يستطيع الاستغناء عنه .

لذا وجد نفسه يتخلص تدريجياً مما كان يتسم به من صفات ليكون أكثر قربا من تحقيق حاجته الملحة وعاطفة حبه التى أخذت تتحكم فيه .

وقد أصبح للمكان تأثير مغاير لما كان عليه من قبل انساق وراءه البرنس ، حيث وجد أن الإقامة على هذه المفاهيم القديمة الخاطئة سوف تؤدى به إلى التهلكة جوعا وفقراً واحتياجا وكان لوجود الدكتور بجواره فى هذا القصر وكذلك كريمة التى أحبها كما رأينا أثر بالغ فى تحوله تدريجيا من الماضى حتى تخلص منه وعاش حاضره .

ومع أن الحقيقة التى أخفتها عنه كريمة ووالدها وهى أنه بالنسبة إليها والد زوجة أخيها ، وأنها بالنسبة إليه أخت زوج ابنته مرفت ، وأن قدومها مع أبيها إلى قصره كان استغلالاً للإعلان ، الذى أعلنه البرنس ؛ ليكون حيلة لإخراجه من حالته التى كان قد سجن نفسه فيها وأن ابنته وزوجها وأختها لم يكونوا بعيدين بالطبع عن هذا التدبير .

هذه الحقيقة بأبعادها التى أرادت أن تجعلها مفاجأة له عندما تكشفت كاملة أمام البرنس لم يثر ولم يغضب بل كان استقباله لها استقبالا مع ما فيه من دهشة كان ممزوجا بالرضا والقبول والسرور بسبب ما كان قد تكون بداخله بفعل المكان ، والمعاشرة من حاجة ملحة ، وعاطفة صادقة ، نحو كريمة ، والتى أصبحت أمنيته أن يظفر برضاها عنه وقبولها له زوجا كما تغير شعوره السابق ، وكذا موقفه من زواج ابنته فإذا به يشعر برضاه عن زواجها من " سالم " شقيق كريمة بل رآه فرصة لتحقيق غرضه وبالتالى لم يجد مانعاً من قبوله لتقدم الدكتور لخطبة ابنته الصغرى ما لم يعترض الرجل الذى كانت ما زالت فى بيته وتحت رعايته وهو زوج أختها ( سالم ) طبقا للشرط الذى أبدته هى فى ذلك .

وانظر هنا إلى أى مدى تغير البرنس فقد كان ينعى على بنتيه أن أمهما كانت من أفراد الشعب ، وها هو يسعى إلى كريمة ذات الأصل المرفوض عند البرنس ؛ لأن طبيعته تغيرت تماما .

وهكذا أصبح للمكان (أى القصر ) بعد إقامة كريمة ووالدها فيه مع البرنس والدكتور دور مغاير لدوره الأول ولكنه آسر إذ أنه لولا استمرار تجمعهم فيه على النحو الذى عرفناه لما حدث هذا التغير الذى بدا على البرنس وجعله يتخلص تدريجياً من ماضيه ويعيش حاضره .

ولنستعرض معا بعض مقتطفات من الرواية يمكن أن نستخلص منها ما ذهبنا إليه ونراها فى النقاط الآتية : -

١-عبد السلام (للدكتور ) : على فكرة يابنى .. أين البرنس ؟ ..

الدكتور : فى المطبخ ! ...

عبد السلام : لعله لم يكن معتاداً ..

الدكتور : حقا .. ولكنه قد تعود الآن .. وأصبح يؤدى أعمالاً لم يكن يخطر على باله أنه سيؤديها يوما .. الملوخية التى أكلناها اليوم فى الغداء هو الذى قطفها .. والبصل هو الذى خرطه .. والثوم هو الذى فصصه !

عبد السلام : ماشاء الله ! .. همة عظيمة !..

الدكتور : كلما تذكرت هذه اليد التى ماكانت تعرف فيما مضى غير الضغط على زر الجرس ، ولبس القفاز ، ورائحة العطور !..

عبد السلام : أخشى أن يكون مستاء أو متورطا ! ..

الدكتور : بل إنه يفعل ذلك مغتبطا .. ويلح على الست " كريمة " فى أن تكلفه بخدمة!..[1]

---

[1] توفيق الحكيم ... الأيدي الناعمة ص ١٠٢ – ١٠٣ .

وبانتهاء هذا الجرء من الحوار يتضح لنا كيف بدا التغير واضحا على البرنس نحو الخدمة بهمة ونشاط .. بسبب هذا التجمع الأسرى فى داخل القصر وتأثره بما تقوم به كريمة فيه ..

٢- البرنس فى محاورة مع الدكتور يقول : أيرفض عبد السلام أفندى هذا مصاهرتى أنا .. ألست خيراً من زوج بنته المتوفى ؟ .. هل تعرف بمن كانت متزوجة ؟ .. كان المرحوم زوج كريمة ، كما قالت لى ، معاون محطة كوبرى الليمون .. ألست في نظر الحاج عبد السلام أحسن على الأقل من معاون المحطة ؟ .. أنسى من كنت .. ؟ أنسى من أنا ؟ ..

الدكتور : أنت الذى لا تريد أن تنسى ذلك .. مع الأسف الشديد وتريد بعد ذلك أن يكون لك أصدقاء من النوع الحقيقى .. لقد تجردت من لقبك ولكنك لم تتجرد بعد من ..

البرنس : " يثوب ويتنبه " لاتؤخذانى .. إنك استثرتنى ..

الدكتور : من يريد أن يتزوج كريمة يجب أن يحس بأنه من طينة مثل طينتها ...

البرنس : وهذا اعتقادى

الدكتور : كلامك الآن لا يدل على ذلك ..

البرنس : كلام غضب لا يمثل إحساسى الحقيقى [١]

وفى هذا الحوار يبدو البرنس وهو فى مرحلة التأرجح والانتقال بين ماضيه ، وما كان عليه فيه من اعتقاد ، وحاضره وما بدأ يشعر به من عاطفة .. ويصير إليه من فكر ..

٣- عندما طلب البرنس من الدكتور مساعدته فى تحقيق رغبته بالزواج من كريمة وحضر والدها الحاج عبد السلام [٢] خاطبه الدكتور بقوله : الست "

---

[١] نفسه ص ١١٦ ـ ١١٧ .

[٢] ولم يكن قد عرف حقيقة القرابة بينهما ، والتي كانت قد أخفتها عنه في ذلك الوقت

كريمة " .. بمالها من صفات عالية وأخلاق سامية وتهذيب وتدبير .. لابد أن تكون موضع أمل كل رجل يفهم قيمة المرأة المؤدبة المدبرة المطيعة النشيطة.

" للبرنس " أليس كذلك يا صديقى ؟ ..

البرنس : " وهو مطرق فى حرج " : بدون شك ..

الدكتور : طبيعى إذن يا عم الحاج أنه يوجد الآن رجل يريد مصاهرتك .

عبد السلام : يريد " كريمة " ؟ ..

الدكتور: نعم .. وبسرعة وبدون مقدمات أقول لك : إن هذا الرجل هو صديقى هذا! ..

عبد السلام : " بدهشة " البرنس ؟ !

البرنس : أكون سعيدا ! ..

عبد السلام : " يفكر لحظة " : هل فاتحت " كريمة " فى هذا الموضوع ؟

البرنس : لا .. بالطبع ..

عبد السلام : .. هذه مسألة هى وحدها التى تستطيع أن تقطع فيها برأى

البرنس : وإذا وافقت هى ؟ ..

عبد السلام : يكون الأمر قد تم على خيرة الله [1]!

وبالنظر فى هذا هذا المقطع السابق من الحوار ندرك أن البرنس ما كان له أن يتعرف على صفات كريمة المذكورة والتى دفعته لخطبتها من والدها بمساعدة صديقه الدكتور لولا اجتماعهم جميعا فى هذا القصر فى جو أسرى جديد شعر به البرنس وكان فى حاجة إليه حتى ينسى ماضيه ، ويعيش حاضره .

٤- أخبرت كريمة البرنس والدكتور بأنها تعد الشاى لضيوف سيحضرون وطلبت من البرنس أن يكون معها هو وصديقه الدكتور فى استقبالهم ، باعتباره صاحب البيت، وعندما حضر الضيوف .. وخرجت كريمة مسرعة من المطبخ وخلفها البرنس إذ

---

[1] توفيق الحكيم ... الأيدي الناعمة ص ١٢٢ – ١٢٤ بتصرف .

بها لاتكاد ترى الحاضرين حتى تعانق مرفت وجيهان وتسلم علم سالم بحرارة وعدم كلفة.. فقال البرنس : ( مستغربا ) ما هذه المفاجأة ؟ .. يظهر أن بينكم معرفة وثيقة ! ..

مرفت : نحن يا بابا أقارب ..

البرنس : أقارب ؟ .. أنتم أيضا ؟ ! ... العبوا غيرها .

جيهان : بل هذا صحيح يا بابا .. اسأل بابا الحاج !..

عبد السلام : " للبرنس " هذا أبني سالم ...

البرنس : مأخوذاً " ابنك " ؟ !

كريمة : وشقيقي الوحيد ...

البرنس : " ملتفتاً إلى كريم

ة " هو إذن .. شقيقك ؟! ولماذا لم تخبريني منذ لحظة بأنه هو الذي سيحضر للشاي ؟

كريمة : أردت أن أجعلها مفاجأة ..

البرنس : إنها بالفعل مفاجأة لى .. مفاجأة سارة .. إنى سعيد يا .. سالم .. بك حقا إنى سعيد بأن نجتمع هذا الاجتماع العائلى ..

البرنس : إنى آسف على الأيام التى مرت ونحن بعيدون .. بعضنا عن بعض هذه العائلة الجميلة .. لماذا كانت مشتتة ؟ .. لماذ كان بعضها يجهل وجود البعض ؟ ..

مرفت : " فى دهشة " إنك قد تغيرت كثيرا يا أبى ! ..

البرنس : أتلاحظين ذلك ؟ ..

جيهان : بالتأكيد يا بابا .. أنت الآن رجل آخر .. [1]

راجع الحوار السابق ترى أن البرنس بدأ يتحول ويتغير موقفه بالرضا والقبول للواقع بخصوصياته ، التى كان يرفضها آنفا حتى إذا وصل إلى المفاجأة المعدة له

[1] نفسه ص ١١٠ ، ١٣٣ – ١٣٧ بتصرف .

تقبلها بغير حرج أو اعتراض بل كما قال : " إنها مفاجأة سارة .. إنى آسف على الأيام التى مرت ونحن بعيدون .. بعضنا عن بعض .

٥- فى حوار آخر :

مرفت : على فكرة .. ما رأيكم لو تناولنا الشاى فى الحديقة .. الجو اليوم بديع .

كريمة : أحسن فكرة .. هيا ننقل المعدات إلى الحديقة .

البرنس : وأنا أساعدك ..

مرفت : وأنا كذلك .

سالم : وأنا طبعا ..[١]

وفى هذا المقطع تجد أن البرنس كان أول من أبدى استعداده لمساعدة كريمة فى نقل المعدات .. وأنه أصبح مثل من حوله من هواة العمل .

٦ – وأخيرا نختم بهذا الحوار ( بعد أن أجابت كريمة على طلب البرنس ليدها بأن الرأى الأعلى لأخيها سالم .. [٢]

مرفت : ماذا تريد منى يا بابا ؟ ..

البرنس : كلام هام على انفراد ..

مرفت : بخصوصى ؟ ..

البرنس : خصوصى أنا وخصوص زوجك ...

مرفت : هل تريد شيئا من " سالم " ؟

البرنس : يد أخته ..

مرفت : تقبل الآن أن تتزوج أنت نفسك من هذه العائلة .. المتواضعة .

البرنس : لا توبخينى .. ولا تحاسبينى على ما مضى .. تلك كانت أفكار قديمة ..

مرفت : و" كريمة " ؟ .. أهى موافقة ؟ ..

---

[١] المرجع السابق ص ١٤٦-١٤٧

[٢] المرجع السابق ص ١٥٢ – بتصرف

البرنس : إذا وافق " سالم " .

مرفت : و " سالم " ؟

البرنس : لم أجرؤعلى مفاتحته..لهذا جئت بك الآن..أتستطيعين أن تقنعيه بالقبول؟ ! ..

مرفت : سأحاول ..

البرنس : بل ابذلى كل جهدك يا " ميرفت " .. أرجوك وبسرعة .[1]. قبل أن يسبقنا ..

مرفت : يسقنا من ؟ ..

البرنس : الدكتور حمودة ..

مرفت : أهو يريد أيضا كريمة ؟!..

البرنس : إذا وافق " سالم " ..

مرفت : آه .. فهمت الآن سر هذا السباق بينكما على إرضاء " سالم " [2]

من جميع ما سبق يتضح أن المكان هو المؤثر الأول فيما كان عليه البرنس أول ثم فيما صار إليه ثانيا ، حيث رأيناه أولا ساخطا على ابنته لزواجها من شاب ميكانيكى ، من طبقة الشعب ، مما جعله يشعر بالعار الشديد ، والفضيحة الكبرى ، خاصة بعد انضمام أختها الصغرى إليها ، الأمر الذىجعله يصر على المعيشة فى القصر بدونهما، برغم نفاذ نقوده وجاهه ، وهجر الخدم له .

وكان ذلك الإصرار بالطبع بسبب استمرار إقامته فى هذا القصر الذى عاش فيه ماضيه البهيج ، حيث ظل متمسكا بهذا الماضى ، ورافضا للواقع الجديد ، بل ظل

---

[1] المرجع السابق نفسه ١٥٥-١٥٨ بتصرف
[2] المرجع السابق نفسه ١٥٥-١٥٨ بتصرف

معتقدا بأنه من طبقة خاصة ، فوق طبقة الشعب ، وأن العمل إنما هو على العبيد والخدم فقط .

ثم رأيناه ثانيا يتخلص تدريجيا من هذ الماضى ، ويتخلى عن رفضه للواقع ، الذى بدأ يتقبله ويعيش فيه ، وكان ذلك بسبب تأثير المكان أيضا ( أى القصر ) الذى تغير دوره فى التأثير هذه المرة حين جمع بضخامته واتساعه هذه الأشتات المتنافرة ، المتباغضة ، وجعلها تعيش تحت سطح واحد ، فنشأ بينها مايشبه الألفة والود ..

وهكذا أصبح المكان ذا رسالة أخرى مغايرة لما سبق فأشاع جو المودة بعد البغضاء والتلاقى بعد النفور والاندماج الكامل إلى درجة الزواج .

ومن هنا يتضح أن المكان قام بدورين قد يبدو أنهما متناقضان من حيث التشتيت فى المرحلة الأولى والتجميع فى المرحلة الثانية ، ومع ذلك يبقى المكان هو البطل ، وهو المحرك ، وهو المسيطر على الأحداث والشخصيات .

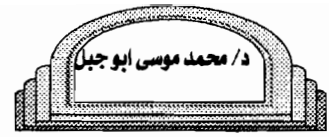


# بطولة المكان في "شباب إمرأة"

## بطولة المكان فى "شباب امرأة"

**تمهيد :**

فى مقدمة حديثنا هنا رأيت أن نتابع الأحداث [1] بإيجاز منذ بدايتها مع الشخصية المحورية فيها أعنى شخصية " إمام " عندما كان صبيا ، ثم طالب علم معمم ، وشابا متمسكا بتعاليم دينه ، وبأخلاق القرية ، التى جعلته عف اللسان ، غض البصر عن المحرمات ، يأنف من كل ما يخدش الحياء ، حتى ساقته الأقدار مرغما إلى السكنى مع المعلمة " شفعات " حيث لم يجد غير هذا المكان قريبا من كليته " دار العلوم " لكنه لم يكن يدرى أن هذا المكان بما حوى سوف يقلب حياته رأسا على عقب !.

فقد شاهدناه صبيا يلعب فى حارات القرية ، ودهاليزها ، مع صديقته الصبية سلوى ، ويحرص على رضا والديه فى حفظ ما يكلف به من القرآن ؛ حتى يمكن أن يذهب إلى المعهد .. وينال الشهادة ، ويصبح " خوجه " كما تريد له أمه ويتمنى له أبوه ، الذى لا يريد له أن يكون مثله فى الجهل وقلة الدخل .

وقد كان لتفوق الصبى فى المعهد منذ العام الأول أثر كبير .. قد تغيرت به نظرته لكل شيء ، حتى نحو نفسه ، واختفت كلمة " الصبى " وحلت محلها كلمة " الشيخ " .. وهكذا ظل الصبى أو الشيخ " إمام " من نجاح إلى نجاح .. حتى كانت المفاجأة السارة بنجاحه بتفوق كبير فى امتحان المعهد الأخير فكان من الخمسة الأوائل الذين من حقهم على الدولة أن يدخلوا معاهدها الكبيرة ويتعلموا فيها بالمجان .

ولم تكن فرحة إمام الكبيرة بهذا النجاح الكبير من أجل نفسه .. وإنما من أجل أبيه ، حيث حقق له بعض آماله بهذا النجاح كما حقق له تكفل الدولة بنفقات تعليمه مما

---

[1] أمين يوسف غراب – شباب امرأة – الطبعة الأولى – أبريل ١٩٥٨ م .

يريح والده من عناء مجهد إذا ما ذهب إلى القاهرة ، حيث لايحتاج إلا لنفقات معيشته ؛ لذا رجع إلى قريته فرحا بهذه النتيجة التى يريد أن يزفها إلى أبيه لكنه عندما أقبل على الحارة سمع من يقول له : كن لأمك المسكينة عوضا لها عن أبيك . ومن أنجبك يـــابنى لم يمت !...

ومرت بعد ذلك أيام كان لابد لها أن تمر .. وحدثت خلالها أحداث كان لابـد لها أن تحدث ،وانتقلت أمه إلى دار خاله ..

وذهب الشاب إلى القاهرة الواسعة .. يقطع الأزقة والحارات لعله يظفر بغرفـة متواضعة بأجر زهيد يمكنه سداده .

كان كل الذى يحمله فى جيبه تميمة أعطته أمه إياها وقالت له : إن أبـاه كـان يحملها لتوسع له الرزق ، وتهيئ له من أمره رشدا .. وخطاب أملته عليه أمه وبعـض أهل القرية إلى الأستاذ الشرنوبى والد صديقة صباه سلوى والذى كان ناظرا بالقريـة ، وانتقل بأسرته إلى القاهرة يرجونه فيه خيرا به ، كما كان يحمـل معـه أيـضاً ثلاثـة جنيهات .. بعضها تصدق به عليه خاله ، وبعضها كان ثمن الخلخال الذى باعته أمـه ، وبعضها الآخر كان يملكها من قبل .

وقد صنعت له أمه قفة كبيرة ملأتها "بالمرحرح " وكذلك يـسر الله لـه أمـر ملابسه .. فالكاكولا الكشمير ، التى كان أبوه رحمه الله قد صنعها له ، مازالت زاهيـة اللون تحتفظ بجدتها ..

وظل الفتى عدة أيام يطوف بالحارات والأزقة فى النهار ، يبحث عن غرفـة ، يقيم فيها بأجر متواضع ،يستطيع أداءه . فإذا جاء الليل وذهب إلـى لوكانـدة المدينـة

المنورة لينام ، ويستريح خاصم النوم عينيه ، كلما تذكر خمسة القروش التى يدفعها كل صباح أجرا للوكاندة إلى أن هداه محمدين خادم اللوكاندة إلى غرفة يسكنها بأجر زهيد يقدر على أدائه .

وكم كانت فرحته بهذه الغرفة التى ظفر بها بعد عناء كبير ، وبإيجارها القليل ( ثلاثين قرشا شهريا ) وبصداقته بالأستاذ حسبو وكيل المعلمة شفعات صاحبة المكان ..

وقد استطاع الشاب بواسطة محمدين أيضا أن يحصل على سرير ، ينام عليه بأجر زهيد جدا من مخلفات أسرة اللوكاندة ..

وهكذا بدأ يطمئن إلى مستقبله ، وإلى حياته الجديدة وأنه يمكن أن يذهب إلى الكلية كما يريد ، ويستذكر دروسه كما يريد ، وأن يدفع إيجار غرفته بدون مشقة ، وأن يزور الأستاذ الشرنوبى والست صبرية زوجته وابنتهما سلوى زيارة الصديق للصديق أوالأهل للأهل ، وأن يقابل سلوى وهو مكتمل الرجولة ممتلئ العين ، مرتديا زيه الجديد .. وهكذا أخذ يفكر فيها وفى ذكريات الصبا الجميلة معها ..

وعندما تمت زيارته لهذه الأسرة رأى من كل أفرادها ما يتمناه من استقبال حار ، وود صادق ، وكأنه فرد من أفرادها ، وشعر بأن سلوى مازالت مثله بنفس المودة الصادقة التى جمعت بينهما منذ أيام الصبا .. مما ضاعف من عزيمته فى الحصول على الشهادة ؛ حتى يتحقق له أمله فى الارتباط بها .

وبعد ،

فماذا بعد هذا ؟ هل حافظ إمام على ما تربى عليه من قيم وأخلاق ؟ هل استمر فى الطريق الذى أرادته له أمه وتمناه له أبوه ؟ هل واظب على قراءة القرآن ومداومة الصلاة والبعد عما يغضب الله ؟ هل حافظ على شبابه ودينه ، وحقق الغرض الذى من أجله حمل التميمة التى أعطتها له أمه المريضة والتى كان يحملها أبوه لتهيئ له من أمره رشدا ؟ هل سار فى الطريق الذى يمكنه من الارتباط بصديقة صباه وشبابه وحلم حاضره ومستقبله !؟

ترى من الأحداث أن الإجابة لم تكن بالإيجاب بل بالنفى ، فكيف كان ذلك ؟

لقد كان ذلك باختصار بوقوعه المتكرر فى فعل الفاحشة مع صاحبة المكان المعلمة " شفعات " ! مما أدى بالتالى بحكم انزلاقه معها ، وإغداقها عليه ، وتأثيرها فيه إلى عدم التزامه ، وبعده عن الطريق المرسوم ، وتخليه حتى عن زيه الأزهري ، وانقطاعه عن زيارة أسرة الأستاذ الشرنوبي ، ولم يبق إلا ذهابه إلى الكلية !..

فإذا سألنا أنفسنا عن السبب فيما حدث بينهما : هل هو بسبب انحرافهما أو عدم التزامهما ؟ أم أن السبب يعود إلى أحدهما دون الآخر ؟ أم أن هناك سببا آخر ؟

نقول باختصار : إن السبب الأساسي يعود إلى المكان .. نعم المكان ؛ فقد كان المكان بالنسبة لإمام شيئا مغايرا تماما عن البيئة التى نشأ فيها ، والتى تعلم فيها القيم النبيلة والأخلاق السامية .. وكان ينوى أن يحافظ عليها طيلة حياته لكن المكان الجديد بما حوى لم يمكنه من ذلك . بل قلب حياته – كما قلنا – رأسا على عقب !..

وكذلك شفعات التى ورثت عن زوجها الذى توفى ووجدت نفسها مضطرة أن تمارس العمل مكانه وسط رجال فيهم قوة ، وفيها أنوثة ، لكنها لا تستطيع إظهارها ؛ لأن المحيطين بها من صبيانها ، كما أن أحدا منهم ليس مقيما معها في مكان واحد .

فلما جاء إمام أثار فيها الفتنة بوجوده فى مكان واحد معها ، .. وبرجولته الكاملة فوجدت فيه ضالتها .

ولتوضيح ذلك تفصيلا أرى أولا أن نعيش بفكرنا مع المقتطفات أو الفقرات التالية من هذه الرواية مع إتباع كل منها ببعض التعليق ؛ حتى يمكن أن نستخلص ونوضح الدور الكبير والأثر الواضح للمكان فى هذه الرواية :

١- كانت الغرفة التى اهتدى إليها إمام فى بيت قديم فى زقاق الجناينية ، المتفرع من حارة درب المسرات ، فى حى حوش الشرقاوى ، بباب الخلق .. خلف ديوان المحافظة ، تملكه الست شفعات الشهيرة بالمعلمة .

ولكى تبلغ هذا البيت يتحتم عليك أن تصعد عشر درجات من الحجر القديم المتآكل ، تغمرها المياه القذرة صيفا وشتاء ( وتعرف فى الحى بسلالم السبيل ) ثم تنحدر منها يمينا إلى حارة درب المسرات ، وتسير شوطا كبيرا وسط عدة أبنية متلاصقة .. وعند ذلك تبلغ " السيرجة " المعروفة فى الحى " بسيرجة المعلمة " .. وهنا تكون قد بلغت البيت ، وطالعك بابه الفولازى الضخم الذى انتصب بين بعض الأقبية المهجورة والجدران المهدمة .. ويتوسطه باب آخر صغير ذو " سقاطة " حديدية ضخمة ، ما إن ترفعها بيديك حتى تسمع صوتا مزعجا بالداخل هو صوت الجنزير الطويل المعلق فى طرف السقاطة من الداخل ثم بعد ذلك ينفتح الباب ، أو

بمعنى أصح تنفتح الخوخة ، فتحنى رأسك وتقوس ظهرك لتدلف منه ، فإذا أنت أمام دهليز فسيح ، ولكنه رطب مظلم ، لا تستطيع من الظلام أن تتبين بسهولة محتوياته ، فإذا ما تبينتها جليا عرفت أنها أبواب الغرف الثلاث التى يتكون منها البيت ، أوبمعنى آخر هى التى يتكون منها نصف البيت فقط ، لأن النصف الآخر وهو الذى فى مواجهة الداخل ، قبو كبير تتوسطه السيرجة وهى عبارة عن بئر فوقها حجر ضخم فى وسطه دائرة كبيرة كدائرة الساقية يدور فيها حمار خلفه متاعبه وشقاؤه ..

أما الغرف الثلاث فكانت إحداها – وهى على يمين الداخل مباشرة خلف الخوخة – ذات باب نظيف . وكانت هذه الغرفة تمتاز عن غيرها بسرير من النحاس ،تزينه ملاءة محلاوى ، وتعلوه ناموسية من التل البمبى ... ويقابل السرير " بريه " كبير ، وضع خلف باب لم يستعمل ، كان فيما مضى يوصل إلى الغرفة الثانية التى تلى هذه الغرفة مباشرة ، وهى الغرفة التى قطن فيها الشاب" إمام " " والبريه " يكاد هو الآخر يكون فى ضخامة السرير ، وفوقه تحت المرآة رخامة كبيرة .

هذه الغرفة تقطن فيها المعلمة شفعات ، صاحبة البيت والسيرجة ، وهى امرأة فى منتصف العقد الرابع ، ذات جمال أخاذ ، تبهر العين طلعته ، عرفت كيف تغذيه وتتعهده ...

وقد كانت عصبية المزاج جدا ، شرسة الطباع إلى حد كبير ، فإذا ثارت أو غضبت ينقلب هذا الجمال كله ، وهذه الفتنة التى لا حد لها ، وهذا الخفر والحياء الذى يشبه حياء العذارى إلى عنف وقسوة ووحشية مما جعل سكان الحارة والحى كله يخافونها ويخشونها ، ويعملون لها ألف حساب .

وقد ساعدها هذا بعد أن مات زوجها وأشرفت هى على الثروة التى تركها لها : البيت والسيرجة وثلاثة دكاكين فى حارة سطوحى وحوش فى درب سعادة – ساعدها على أن تدير كل هذا بنفسها بدون أن تفكر فى الزواج ، أو فى أحد يساعدها على الإشراف على السيرجة إلا الأستاذ حسبو ، وهو الذى يقطن فى الغرفة الثالثة من الدهليز الذى يقع بجانب السيرجة تماما ، وحسبو هذا كهل فى الستين من عمره ، يكثر من شرب الخمر ، التى تجعله عندما ينام لا يشعر بأى شىء [1]– وهو برغم نحافته وضموره وشحوب لونه الدائم ، الذى يشبه وجوه الاموات يتمتع بحيوية غريبة ونشاط دائم [2].

وهكذا نرى أن المكان الذى سكنه إمام بهذا الوصف لما فيه ومن فيه يعطى انطباعا للمتأمل من أول وهلة بأنه قد يوقع صاحبه فيما وقع فيه إمام مع شفعات ؛ حيث تجد البيت شبه مدفون ، بعيداً عن الأنظار ، ببابه الفولازى الضخم ، الذي يتوسطة باب آخر صغير ، بسقاطة حديدية ضخمة ، معلق بها جنزير طويل ، تحتاج عند دخوله أن تحنى رأسك ، وتقوس ظهرك ، لتجد نفسك بداخله ، أمام دهليز مظلم ، تكاد لا ترى أبواب غرفه الثلاث ، فتشعر هنا ويشعر ساكنوه بأنه لا يمكن لعين خارجية أن تتعقب ما يدور فيه (١).

ثم هذه المعلمة بصفاتها المذكورة ، وبعدم وجود ساكن آخر معها سوى ذلك الرجل الكهل ( حسبو) ، الذى كان يعمل تحت إمرتها ، ويسكن فى الغرفة الثالثة

---

[1] "شباب امرأة " ... ص ١٦٨ بتصرف .
[2] "شباب امرأة "...ص ٩١ – ٩٧ " .
[1] وهذا أعطى شفعات وإمام عند ممارسة الخطيئة أمانا واطمئنانا لعدم فضح تصرفهما .

المنفردة ، بينما سكن إمام في غرفة لا يفصلها عن غرفتها سوى باب يثير الإحساس بإمكانية استعمالة عند اللزوم ، ويعطيها الفرصة لمعرفة كل حركة وسكون في غرفته ، ويثير فضولها وتطلعها لاختلاس النظر إليه .

٢ – سعد الأستاذ حسبو واطمأن اطئناناً كبيراً ، فقد كان بقاء هذه الغرفة التي استأجرها الشاب خالية لا يسكنها أحد ، يسبب له قلقا كبيراً وآلاما لاحد لها ؛ إذ كان يعرضه دائما إلي غضب المعلمة .. ولذلك كانت فرحته لا تقدر فى هذه الليلة عندما استأجر الشاب الغرفة ، وراح ينتظر عودة المعلمة . وما إن رآها حتى تقدم إليها وزف إليها البشرى وهو ممسك بعقد الإيجار في يده .

وما إن سألته بعض الأسئلة وعرفت أنه أجر الغرفة إلى مجاور في الأزهر حتى غضبت ... وقالت صارخة في صوت كالرعد وهى تمسك بعقد الإيجار من يده وتمزقه ، وتلقى به فى وجهه : لابد أن تطرده الآن : قلت لك إن المجاورين وطلاب العلم لا يجدون قوت يومهم ، فكيف بهم يدفعون الإيجار .

وأحس الأستاذ حسبو بشىء من الضيق يجثم إلي صدره وذهب إلي غرفة الشاب ، لكنه لم يستطع أن يخبره بطلب المعلمة ثم سمع صوت المعلمة تناديه ، ولما رأته قالت له وغضب الدنيا جميعها يرتسم على وجهها : هل طردت هذا الفتى ؟ فقال لها كاذباً أصدرت إليه الأوامر المشددة بالخروج فوراً ، فذهب ليأتي بحمال يحمل له متاعه إلى لوكاندة المدينة المنورة حيث كان .. وفجأة سمع صوت أحد عمال السيرجة ينادى ويستغيث ويولول صارخاً : بهلول .. بهلول .. أغيثونى .. الحقونى .بهلول سقط في البئر . بهلول سقط فى البئر .

فانطلقت كالسهم ومن خلفها الأستاذ حسبو يقطع فناء الدهليز وما إن أقبلت على السيرجة ورأت الحمار فى قلب البئر غارقا وسط عصير الكسب والبذور اللزجة ، يكاد يموت وتختنق أنفاسه ، وقد غطس كله فى قلب البئر ، ولم يظهر منه سوى رأسه وأذنيه فقط حتى انفجر مرجل غضبها ، وتعالى صراخها فى الليل ، كما انطلق الأستاذ حسبو مهرولا إلى الزقاق هائجا منادياً بأعلى صوته على أهل الزقاق أن يهبوا لإنقاذ بهلول من البئر . وما هى إلا لحظات حتى اجتمع أهل الزقاق جميعاً ، رجالاً ونساء فى قلب السيرجة ، الكل يحاول أن يهدئ من ثورة المعلمة ، والكل يحاول أن ينقذ بهلول من قلب البئر . وتعالى الصراخ والهرج والمرج .. وبينما الجميع يأخذهم الفزع واليأس إذا الشاب يخرج من غرفته على هذا الصراخ والعويل ، ويقف فيهم ، ويستأذن من الجميع أن يبتعدوا قليلا . ونظر إلى الحجر الضخم ، ثم ثبت ظهره على جدار السيرجة وقدميه الاثنتين على الحجر ، ومن ثم ضغط بكل قوته ، وهو يبسمل ويتمتم بشئ من القرآن ، فإذا الحجر الضخم يتدحرج أمامه كالكرة ، ثم شمر عن فخذيه ، وعقد حول خصره أطراف قميصه الممزق الذى يرتديه وسقط في قلب البئر ! وما هى إلا لحظات تكاد تشبه الغمض ، حتى خرج بالحمار محمولا على كتفيه ، ممسكاً به بذراع واحدة قد لفها حول ظهره ، ووقف الجميع ينظرون فى دهشة ، ووقفت المعلمة مبهورة ، جاحظة العينين ، تنظر إلى كتف الشاب العريضة الضخمة التى تحمل الحمار ، وذراعه المفتولة القوية التى تلتف حوله ، ثم تنظر إلى جسمه الفارع القوى وهو يسير بالحمار ، حتى بلغ به فناء الدهليز ، ووضعه على الأرض بين الحياة والموت . ظن الجميع أن الحمار قد مات ، بيد أن الشاب طمأنهم إذ طلب رأسا من البصل ، ولما

جيء به إليه شطره شطرين ، ومن ثم ضغط عليه بين أصابع يده الواحدة فتساقط عصير البصل نقاطا سكبها الشاب فى منخاري الحمار ، الذى ما لبث أن أفاق كأن لم يحدث له شيء .. ولما رآه الشاب كذلك ، ورأى أن مهمته قد انتهت ، مد يده وأزال عن قميصه بعض الأوحال التى تلوث بها ، وهم أن ينصرف ، بيد أن المعلمة ، التى مازالت نظراتها المبهورة ، وعيونها الجاحظة عالقة بذراعه وكتفيه لم تتزحزح ، اقتربت منه وسألته قائلة : أتقطن أنت في هذا الحى ؟

فنظر الشاب إلى باب الغرفة ، الذى يجاور باب غرفتها تماما وقال : إننى أقطن فى هذه الغرفة .

فأخذتها المفاجأة وهى تزم شفتيها سريعا ، وتكاد تغمض عينيها حتى لا تفضحها دهشتها ، وقالت إذن انزع هذا القميص لأغسله لك . فقال الشاب بدون أن ينظر إليها وهو يفتح باب غرفته ، ويتوارى خلفه : شكرا سوف أغسله بنفسى !.

وهمت أن تدخل وراءه الغرفة وأن تقول له شيئا ، ولكن صوتا خفيضا جدا ، يكاد يشبه الهمس ، أقبل من وراء ظهرها يقول: أنفذ الحكم وأطرده .. أم تراجع المحكمة نفسها ؟

فلم تلتفت إلى الأستاذ حسبو .. وإنما تركته وانصرفت إلى غرفتها ، صامتة تنظر إلى شئ بعيد (١) .

ومع النظر هنا نرى أن حرص المعلمة كان مركزا على استثمار هذه الغرفة بتأجيرها بإيجار شهرى مضمون ، لذلك خافت من عدم قدرة الساكن الجديد على

(١) أمين يوسف غراب _ شباب امرأى ١٩٥٨ م ... ص ١١٤ _ ١٢٥ بتصرف .

الاستمرار فى دفع الإيجار، فأمرت بطرده ولكنها شغلت بحادثة سقوط حمارها فى البئر، ورأت هذا الشاب ، الذى هم لإنقاذه ، بعد أن عجز الجميع ، والذى جعلها تقف مبهورة ، جاحظة العينين ، تنظر إلى كتفه العريضة الضخمة ، التى تحمل الحمار ، وذراعه المفتولة القوية ، التى تلتف حوله ، ثم تنظر إلى تنظر جسمه الفارع القوى ، وهو يسير بالحمار حتى بلغ به فناء الدهليز ووضعه على الأرض .

وعندما أتم الشاب مهمته بنجاح وسألته مبهورة عن مقر سكنه وعرفت من كلامه أنه الساكن الجديد ، الذى كانت تنوى طرده أخذتها المفاجأة وأرادت أن تقوم بغسل قميصه مما علق به فلم يقبل ، وشكرها وهو يدخل غرفته .

وهنا نشعر بمدى ما أحدثه هذا الموقف من أثر نفسى عليها من خلال ما بدا عليها من انبهار ودهشة ثم تردد فى الدخول عليه .. حتى أنها لم تلتفت لحسبو عندما سألها إن كانت مازالت مصرة على طرد هذا الساكن أم لا ؟ بل رأيناها تتركه وتتصرف إلى غرفتها وهى تنظر إلى شيء بعيد .

وبالطبع ما كان للشاب أن يقوم بما قام به لولا تواجده فى هذا المكان ، كما أنه لولا تواجده أيضا فى هذا المكان بجوار المعلمة ما رأته عن قرب .. ورأت ما قام به .. وانبهرت واندهشت له ..

٣- كان من الأشياء التى اتخذها الشاب عن أبيه ، وتمسك بها وعاهد نفسه وربه عليها، أداء فريضة الصلاة في مواعيدها .. وألا يصلى الفجر قضاء أبدا مهما تكن الأسباب. وقد أصبحت هذه عادة عنده .

وقد استيقظ من تلقاء نفسه قبيل الفجر فى تلك الليلة ، ونهض من فراشه ، وأشعل المصباح الزجاجى .. ، ثم وضع القبقاب فى قدميه ، وخرج إلى الدهليز ، وفتح الحنفية التى أحدث صوت الماء المنساب منها فى البراميل صوتا مزعجا ، أقلق المعلمة شفعات فى فراشها .. ، ولكنها مدت يدها وسحبت الغطاء على وجهها ونامت ، بيد أنها عادت فاستيقظت ثانية عندما انتهى الشاب من وضوئه وعاد يدق بلاط الغرفة بالقبقاب ، الذى فى قدميه .. ، فازداد ضجرها ، وزاد من هذا الضجر صوت وابور الجاز الذى أشعله الشاب ووضع عليه إبريق الشاى ؛ لكى يغلى الماء فى الفترة التى يقضيها فى الصلاة ، وضايقها هذا كله .. وأثار سخطها .. ، وظلت كذلك حتى انطفأ وابور الغاز وتلاشى صوته المزعج .. ، وأغمضت عينيها ونامت ، بيد أن هذا النوم لم يمتد ؛ لأن الشاب بعد هذا تناول ألفية ابن مالك المقررة عليه حفظا وراح يبدأ ويعيد ويتلو ويرتل ... ونفذ صوت الشاب إلى أذنيها من ثنايا الباب الذى يصل بين الغرفتين والذى وضعت أمامه الولاب لكى تسده نهائيا ؛ فثارت ثورة عنيفة ، وهبت من فراشها ساخطة ، وفتحت باب غرفتها فى عنف ، ووقفت فى فناء الدهليز تنادى بأعلى صوتها حسبو ، لكى ينقذها من هذا الكرب ..

ولما بح صوتها دون مجيب اندفعت فى ثورة هائلة ، ودفعت باب غرفة الشاب فانفتح على مصراعيه فأحدث دويا هائلا ذعر منه الفتى ذعرا شديدا .

وزاده ذعرا عندما وجد أمامه إمرأة شابة عارية إلا من قميص نوم رقيق ، كاد يكشف عن الجسد كله ، تدخل عليه غرفته في الليل ، وتسبه سبا مقذعا ، جارح اللفظ ، قبيح المعنى ...

بيد أن الشاب إثر ذعره وذهوله نظر إليها بعد أن انتهت من هذا السباب ، وما أن رفع عينه إلى صدرها ، حتى رد البصر سريعا ، وأغمض عينيه ، وهو يحوقل ويتمتم بألفاظ من القرآن وكأنه يستغفر عن ذنب كبير. ثم بعد جهد ، وبعد لحظات مضت ، استطاع أن يسترد فيها أنفاسه ويقول وهو يفتح عينه دون أن ينظر إليها: من حضرتك؟

فقالت ساخرة وصدرها مازال يعلو ويهبط من شدة الغضب: عاشقة لك.. مغرمة بك .. متيمة لم تنم طول الليل من أجل عيونك السوداء !

ثم استردت أنفاسها وقالت فى نفس الثورة والغضب : أتريد أنه تعرف من أنا ؟ أنا صاحبة البيت .. صاحبة هذه الميضة ، التى تسكن فيها .

فقال الشاب وعينه لم تهبط إلى أكثر من وجهها الثائر .. وهل صاحبة البيت تكون على هذا الجانب من الوقاحة ؟

فغلى الدم فى عروقها وهى تقول : أنا وقحة يا كلب ؟!

فأجابها قائلا : وغير مؤدبة .

فاربدت سحنتها ارباداً مفزعا، وانحنت فى سرعة خاطفة على قدمها اليمنى وتناولت الشبشب ،ذا الكعب العالى ، والوردة الحمراء . ورفعت ذراعها به ، وهى تقترب منه ، كلبؤة مفترسة ، وتتمتم بشفتين مرتعشتين : أنا قليلة الأدب .. يابن ..

بيد أن الشاب لم يمهلها تتم ؛ فقد كانت يده أسبق إلى ذراعها التى تريد أن تنهال عليه ، وأمسك بها فى عنف ،وضغط عليها فى قوة وغضب ، حتى كادت الذراع تختنق بين أصابعه الخشنة والمتوترة ، فاضطربت المرأة ، ووقفت خائفة ترتجف ،

تنظر إلي تلك الذراع القوية المتحجرة التى أمامها ، وتلك اليد التى تضغط على ذراعها حتى تكاد تعصرها عصرا .

وحانت منها التفاتة إلى كتف الشاب العريضة الصلبة التي تشبه الفولاذ ، والتى رأتها منذ ساعات تحمل الحمار فى يسر وكأنها تحمل دجاجة ، فارتعبت وخافت ، وسقط الشبشب من يدها وعند ذلك تركها الشاب ، وقال وهو يبتعد عنها قليلا وينظر إليها شزرا : لو أن إمرأة فى قريتنا فعلت هذا .. لكان نصيبها القتل . ولكننى أكتفى الآن بطردك ..

فلم تجب بشيء أو كأنها كانت تريد أن تجيب بشيء ، ولكنها انفجرت على الفور باكية ترتعش .. ونظر الشاب إليها ، وإلى جسدها الذى يغلى كالمرجل أمام عينيه ، وإلى الدموع التى انسابت من عينيها ، وتساقطت على القميص فبللته ، فخاف وارتبك بعض الشيء وانقلبت ثورته إلى شفقة .. فاقترب منها وهو يحوقل ثانية ويتمتم بألفاظ من القرآن مرة أخرى ، ويغمض عينيه ، حتى لا يبيح لنفسه ما حرم الله ، ويرى ما أمر الله أن يستر ، ولذلك قال وهو ينظر إلى بعيد وكأنه يخاطب شخصاً آخر : مم تبكين ؟

فلم تجب وإنما استرسلت فى بكائها المرير ، فقال الشاب وهو أشد ما يكون أسفا : إن كنت فى لحظة غضبى قد أسأت إليك ، فإنى أعتذر وأرجو من الله ومنك المغفرة على هذا الذنب ، الذى لم تكن لى يد فيه . فرفعت صدرها الملتصق بالحائط ، ونظرت إليه بعينيها المحمرتين ، الغارقتين فى الدموع ، وقالت بصوت حزين أثار شفقة الشاب إلى حد كبير : إننى أبكى حظى العاثر .. إننى إمرأة شرسة الطباع ، ما

فى ذلك شك . أسيء إلى من يحسن إلى . وقد أسأت إليك برغم الحسنة التى قدمتها لى ، وبرغم أنك أنقذت بهلول من الموت ولكن هكذا أنا ، فاعذرنى .. أنا أشبه مـا أكـون بطفلة ، بإمرأة لا عقل لها . إن الذى يعرفنى لا يغضب منى أبدا ، وإنما يـشفق علـى دائما ..

وتأثر الشاب ، وهو يمد يده ويتناول الكاكولة الكشمير ويطرحها على جسدها ، الذى كاد أن يتعرى أمامه .

وهكذا عرف منها بأنها ليس لها أب ولا أم ولا أخت ، ولا قريب ، ولما سـألها عن زوجها انفجرت ثانية فى بكاء عنيف .. ثم أخبرته بموته منذ سبع سنوات وأنه كان بالنسبة إليها كل شيء .. فنصحها بالصبر الجميل ، الذى ثوابه الجنة .

وعندما سألته أن يغفر لها خطأها معه وتهجمها عليه قال لها : لا يملك الابـن إلا أن يغفر لأمه كل شيء .

فقامت ناهضة وهى تضحك فى غيظ ، وتزيح الكاكولة من على كتفيها وتعيدها إليه : إذن أمك عجوز جدا .

ففطن الشاب إلى الخطأ الذى تورط فيه ، وقال على الفور يجاريها فى ضحكتها وهو يغمض عينيه ويشيح بوجهه : أقصد فى المعاملة وليس فى السن طبعـا . فقالـت وهى تمد يدها لتصافحه وتتصرف : إنك أنت طيب القلب جدا . ثم قالت وهـى تـشير بيدها إلى الباب المغلق الذى يفصل بين الحجرتين : إننى جارتك وهذه هـى غرفتـى ، وأى شيء تحتاج إليه تجده فى الحال .

فقال الشاب هذا فضل منك والله أرجوا أن يجزيك عنى خير الجزاء[1] .

وهنا يبدو مدى التزام الشاب وحرصه على صلاة الفجر فى موعدها مع حفظه لدروسه ، لكن الصوت المنبعث من ذلك أقلق المعلمة شفعات وأطار النوم من عينيها بسبب قربه – دون أن يدرى – من مكان نومها فى هذه الغرفة الملاصقة لغرفتها مما جعلها تندفع فى ثورة هائلة وتدفع باب غرفتة وتقتحم عليه خلوته وتبه سبا مقذعا بينما كان لا يستر جسدها إلا قميص نوم رقيق . الأمر الذى أربك الشاب ، وأزعجه ، وجعله يغمض عينيه محوقلا حتى لا ترى عيناه ما حرم الله .

ومع محاولة الشاب مخاطبتها بعد ذلك فى هدوء ليعرف من هى إلا أنها تمادت وهى تجيبه فى غضبها حتى أنها أمسكت بشبشبها تريد ضربه به عندما أراد أن يرد عليها مما جعله يمسك بذراعها فى عنف أثار خوفها ورعبها وتذكرت ما كان من قوته فى إنقاذ بهلول .. فسقط الشبشب من يدها وانفجرت فى بكائها ترتعش .

وعندما أشفق عليها الشاب وطرح على جسدها العارى كاكولته واعتذر إليها سألته أن يغفر لها ما حدث منها فقال لها : لا يملك الابن إلا أن يغفر لأمه كل شيء ..

وأمام هذا الرد الذى يبين خلق الشاب ونظرته إليها نراها لا تستريح لهذا الرد وتقوم ناهضة وهى تضحك فى غيظ وتزيح الكاكولة من على كتفيها وتعيدها إليه قائلة: إذن أمك عجوزجدا . مما يبين حرصها على أن تلفت نظر الشاب إلى شبابها وجمالها.

ثم نراها تقول عند انصرافها وهى تشير بيدها إلى الباب المغلق الذى يفصل بين حجرتها وحجرته : إننى جارتك .. وأى شيء تحتاج إليه تجده فى الحال . حيث

---

[1] نفسه .ص ١٢٨ -١٣٨ بتصرف .

ترى أن هذه العبارة الأخيرة توحى بخلاصة ما ترجوه شفعات من هذا الشاب بإعلامه بقربها منه واستعدادها لخدمته .

وبالطبع كان هذا تمهيدا منها لما قد تفعله معه ، متأثرة فى ذلك بما يثيره هذا التجاور فى المكان ..

٤- بعد أن قضى (إمام ) السهرة فى بيت الأستاذ الشرنوبى ، وتعشى مع أسرته .. أحس برغبة فى رؤية محمدين فذهب إلى لوكاندة المدينة المنورة وظل معه حتى صليا الفجر فى مسجد الحسين .. وعندما بلغ البيت مد يده إلى ذلك الجنزير الطويل ، ورفع به سقاطة الخوخة فى حذر شديد ، حتى لا يسبب للمعلمة المستغرقة فى نومها فى الغرفة المجاورة قلقا أو إزعاجا ثم اخترق الدهليز على أطراف قدميه حتى بلغ غرفته .. ووضع ملابسه .. واستلقى على سريره كما تعود أن ينام عاريا إلا من سرواله الطويل .. ومن ثم راح وهو مستلق على ظهره يسبح فى ذكرياته مع سلوى حتى دخل فى نوم عميق..

أما المعلمة شفعات فمنذ اللحظة التى وقعت عيناها على هذا الشاب وهى تشعر بأنها فى ضيق ، تحاول أن تبعده عنها أحيانا فيبتعد ، ولكنه سرعان ما يعود متسللا إليها من حيث لا تدرى .... وأحست أنها فى حاجة إلى أن تنام ، فأغمضت عينيها ، واستغرقت فى نوم هادئ عميق ، بيد أنها لم تمكث طويلا حتى استيقظت ، ولم تدر ما الذى أيقظها ؟ أهى الشمس .. أم ضجيج السابلة فى الزقاق ؟ ولكن الذى تدريه أنها بقيت فى مكانها فى الفراش ، تسترق السمع إلى غرفة الشاب من خلف الجدار .. ولكن لماذا لم يستيقظ هو الآخر مبكرا كعادته ؟..

وتسللت من فراشها فى حذر بدون أن تحدث أدنى حركة ، وأتت بمقعد ووضعته أمام الدولاب الذى وضع خلف الباب الذى يفصل بين الغرفتين ، ووقفت عليه ، ومدت عنقها مدا طويلا ، كما مدت نظراتها ، وراحت تنظر من خلال الزجاج المغبر .. واستطاعت أن ترى أشياء كثيرة جسده الضخم ، الذى استلقى نصف عار على الفراش ، وصدره العارى ، وتلك الظلة الكثيفة من الشعر الأسود الخشن التى عششت على الصدر ، والذراعين القويتين الغليظتين اللتين التفتا بجانبى الصدر العريض .. رأت هذا كله ، وحدقت إليه ، وأدامت النظر طويلا ، ولكن ماله مازال مستغرقا فى نومه حتى الآن ؟

وهبطت من على المقعد ، وأسرعت إلى الشال الأسود الخفيف ، ووضعته على كتفيها العاريتين ، وهمت بالخروج سريعا ، بيد أنها توقفت لحظات عند الباب ،ثم عادت إلى البوريه وفتحت أحد أدراجه وأخرجت منه بعض أدوات التجميل ، ووقفت حينا أمام المرآة تتزين وتتجمل ، ولما اطمأنت إلى كل شيء ، تسللت إلى الغرفة تخطر على مهل ، وتسير على أطراف قدميها ، إلى أن بلغت باب غرفته ، وراحت فى حذر شديد تتقر عليه نقراً هينا حينا ، وأقرب إلى العنف حينا آخر ، حتى استيقظ الشاب ، وما إن فتح الباب ورآها أمامه وجها لوجه حتى أخذته المفاجأة ، واضطرب اضطرابا شديدا ، وراح فى خجل زائد ينظر إلى نصف جسده العارى ، ويحاول أن يختفى به خلف الباب ، ويحاول أيضا أن يحرك شفتيه ليقول لها تأدبا تفضلى ...

وما إن رآها استجابت ودخلت حتى زاد اضطرابه ، وراح يركض كطفل باحثا عن أى شئ يغطى به هذا النصف العارى من جسده ، ووجد أمامه تلك البطانية فالتف

بها ، ونظرت هى إليه ، وإلى خجله الزائد ، وارتباكه الذى لا حد له ، وقالت : رأيت الشمس تطل من النافذة .. ، وأنت لم تستيقظ كالعادة لتذهب إلى المعهد .

قال الشاب فى امتنان : أشكرك .

فقالت لعلك لم تتأخر كثيرا عن موعد المدرسة ؟

فقال ممتنا : اليوم يوم الجمعة ، وهو يوم العطلة الأسبوعية ..

فبلعت أنفاسها وارتبكت بعض الشيء ، بيد أنها تمالكت نفسها وقالت فى شيء من الخجل : لم أكن أعرف ذلك .

وصمتت لحظات ثم قالت : الأيام والليالى ، والدنيا ، والشقاء الذى أنا فيه ، كل ذلك أنساني نفسى ، أنسانى حتى أسماء الأيام وأن اليوم هو يوم الجمعة .

ثم تهدج صوتها وقالت فى أسف : أنا متأسفة إذ أزعجتك وأقلقتك وأيقظتك من النوم .

فقال لها أبدا ، أبدا ، أنا أشكر لك هذا الاهتمام .

فقالت وهى تتجه إلى الباب محاولة الخروج : سأتركك لتنام بعض الوقت ، طالما أن اليوم عطلة .

ولما قال لها إنه يريد الخروج وسألته عن سبب خروجه فى يوم عطلته وأخبرها بأنه تعود قراءة الفاتحه لأبيه فى ضريح أم هاشم ثم صلاة الجمعة فى مسجد الحسين قالت وكأنها تذكرت شيئا هاما : فكرتنى أنا أيضا متعودة كل صباح جمعة أن أزور قبر المرحوم ، أقرأ له الفاتحة وأوزع على روحه الصدقات ... ، فهل لك أن

تصنع معروفا ، وتصحبنى معك لزيارة المرحوم ، إننى أخشى إن ذهبت وحدى أن أصاب بسوء .

فقال لها سريعا وهو ينهض محاولا أن يستعد للخروج : وسوف أصحبك كل يوم جمعة إلى هناك . وسوف أكون دائما كما قلت لك بمثابة الابن البار .

فاضطربت ثانية بعد أن هدأت بعض الشيء ، ونهضت سريعا في ضيق شديد محاولة الخروج ، بيد أنها وقفت عند الباب لحظات وقالت بدون أن تنظر إليه : إلى أن ترتدى ثيابك سأنتظرك عند السلالم بجوار السبيل . فقال الشاب فى اهتمام زائد : دقيقة واحدة وألحق بك .. [1].

ومن الواضح هنا أن المعلمة شفعات منذ أن رأت " أمام " بقوته وشبابه فى بيتها وهى تشعر بضيق شديد بسبب ذلك الصراع الداخلى المرير الذى ثار بداخلها بين الرغبة فيه والحاجة إليه وبين كبريائها وسطوتها وإحساسها بالفارق الكبير بينه وبينها..

وبحكم قرب منامها من منامه ومعرفتها بعدم وصوله – رغم مجيء الليل – من الخارج راحت تتقلب على فراشها فى هذا الصراع ... حتى استيقظت مع الشمس وضجيج السابلة ..

وقد أتاح لها تجاورها معه فى السكن أن تسترق السمع إلى غرفته وتتجسس عليه وتراه نائما عاريا على سريره من خلال زجاج الباب الذى يفصل بين غرفتيهما مما زاد من إثارة رغبتها وتفجير طاقة الأنوثة المكبوتة بداخلها ، وجعلها تتسلل على أطراف قدميها متزينة تتقر بابه وتوقظه من نومه وهوشبه عار بحجة خوفها على موعد دراسته وقد أنساها شغفها به أن اليوم يوم جمعة لا دراسة فيه ..

---

[1] المرجع السابق ١٥١ – ١٧٨ بتصرف .

ولما علمت أنه ينوى الخروج لقراءة الفاتحة لأبيه فى ضريح أم هاشم تظاهرت أمامه بأنها هى الأخرى تعودت أن تزور قبر زوجها صباح كل جمعة ... ويستجيب لرغبتها فى أن يصحبها لزيارة قبره ، ويطمئنها بأنه كالابن البار دون أن يدرى أنه بهذه العبارة يزيد من مضايقتها والابتعاد عما تريده منه ..

٥- اغتسل الشاب وتوضأ ولحق بها عند سلالم السبيل ، كما وعدته .وهناك وجدها تنتظره داخل عربة حنطور ، فاندهش وتردد قبل أن يركب ، وأفهمها أنه كان يفضل السير على الأقدام .. فضحكت وهى تمد إليه يدها ليركب بجانبها بعد أن قالت له إنها متعبة .. فاقتنع وركب بجوارها ولكن بدون أن يمد يده إلى يدها الممتدة إليه ..

ولما جلس ولاحظت أنه يتعمد الابتعاد عنها شعرت بالضيق ولكنها تظاهرت بالسرور وقالت ضاحكة تنظر إليه وهو منزو فى ركن العربة يتمتم بكلمات من القرأن : لماذا تجلس هكذا ؟ استرح فى جلستك ، فأخبرها بأنه مستريح ، لكنها نظرت إليه مرة أخرى وإلى المسافة التى تفصل بين ثوبيهما وقالت وهى ماتزال تضحك : تأكد أن ثيابى نظيفة ، وليس فيها ما يلوث ثوبك إذا جلست مستريحا فخجل الشاب وقال : العفو .. لم أقصد ذلك ..

وفي أثناء عودتهما من زيارة القبور قالت وهي تحاول جاهده أن تبتسم : أأثقل عليك لو أنني طلبت طلباً يسيراً ؟ قال لها بالعكس يسرني .. وتقي أنني لن أرفض لك طلباً ..

قالت له أى طلب . قال : أي طلب . قالت له : احلف . قال : وجلال الله . ثم سألها ماذا تطلبين؟

قالت إنني أشعر بضيق شديد ، والذهاب إلى البيت الآن سيزيدني ضيقاً ، ولذلك أنا أريد أتنزه بعض الشيء .. وليس من عادتي أن أتنزه بمفردي .. لذلك أريدك أن تصحبني ..

فلما .. سألها إلى أين ؟ وقالت له : كما تريد أنت . وأخبرها بأنه من الأرياف ولا يعرف عن القاهرة شيئاً فكرت بعض الشيء .. أو تظاهرت بأنها تفكر .. ثم قالت : وكأنها تذكرت شيئاً : أولاً نتناول الغذاء ثم نذهب إلى السينما الساعة الثالثة .

ورغم تردد الشاب أمام دعوة السينما ، التي لم يدخلها في حياته ، والتي يسمع أنها حرام أو مكروهة بسبب ما تعرضه من بعض الصور الخليعة ، لكنه وافق على دعوتها في النهاية ، بعد أن أفهمته على حد تعبيرها أنهما سيذهبان إلى سينما مؤدبة جداً.

وهكذا انطلقت معه خفيفة رشيقة مرحة .. حينا يشربان عرق السوس وحينا يأكلان الترمس والحلبة ، وحينا الحلوى ، حتي حل موعد الغذاء فذهبت به إلى حاتي العائلات . وقد حفلت المائدة أمامه بأنواع الطعام المتعددة ذات الرائحة الذكية ، فراح يأكل بفرحة غامرة ، ويلتهم الطعام التهاما غير ملتفت إلى شيء .

ونظرت إليه وهو يلتهم قطعة من اللحم يحشو بها فمه . فمدت يدها واقتطعت له قطعة أخرى ، وناولته إياها ، ولاحظ هو أنها لم تأكل كما يأكل هو ، فلما سألها عن السبب . قالت له : يكفيني أن أراك تأكل . فقال على الفور في سذاجة لا حد لها : هذه عاطفة نبيلة .. لا يستشعرها إلا قلب أم فعلاً .

ولم تسمح لفرحتها أن يعكرها هذا المعكر ، وناولته قطعه أخرى من اللحم وهي تقول مع ترددد لا ترد لي يداً . فيقول لها : لن أرد لك طلباً . ثم قالت وهي تمد قدمها تحت المائدة وتضغط في حنان على قدمه : ولا حتي هذا الطلب ؟

فارتعدت قدمه تحت المائدة كأن عقرباً لدغتها ، ومد عينه سريعاً تحت المائدة فطالعته يدها تحمل نقوداً .. وأقنعته بعد ترددد بقولها : إنك ابني فيما بيننا ، ولكنك رجلي أمام الناس . فاطمأن الشاب .. وقد سرتها سذاجته وهما يشاهدان الفيلم ..

ولما انتهى العرض وكان المساء قد أقبل ظل الشاب غارقاً في فرحته ، كما كان تماماً في السينما ، يعيش مع البطل لدرجة أنها لما استدعت أحد الحوذية في الطريق ووقفت أمامهما العربة ، وركبت هي ومدت يدها إليه لم يرفض .. ولما جلس لم يجلس بعيدا عنها .. وانتهزت ــ وهي ملتصقة به ــ هذه اللحظات ، والطريق المقفرة التي تسير فيها العربة ، وراحت تذكره بالأشياء التي أطربته في الفيلم والتي تزيد من سروره .. بيد أنه حدث فجأة ما عكر عليه صفو هذا المرح .. فقد شردت المعلمة فجأة وصمتت منكسة الرأس ، أشبه بمن يعالج ألماً حاداً ، ومدت يدها إلى جبينها .. وسألها الشاب عما بها فأفهمته بأنه الصداع الحاد فتألم الشاب ألماً شديداً محاولا أن يصنع لها شيئاً ، وسرها إلى حد كبير منه هذا الاهتمام .. بيد أنها أخذت تزفر زفرات حادة متقطعة وهي تميل برأسها على رأس الشاب الذي راح يمسح عليه بيده وهو يقرأ سورة الفلق . وكلما أمعن الشاب في القراءة اذداد وجعها ، وارتعش جسدها كله وهي ملتصقة به ، طالبة منه في توسل أن يحضر لها سريعاً شيئاً يخفف هذه الآلام .

وحاول الفتى – وهو في غاية الحزن ــ أن يرفع رأسها من على كتفه لكي ينصرف سريعاً ليشتري لها " برشامة " بيد أنها توسلت إليه ألا يتركها وأشارت له أن يوقف العربة ويرسل الحوزي ليشتري هو "البرشامة ". وانصرف الحوزي سريعاً يبحث عن " البرشامة " ..

ونظر الشاب إليها مشفقاً جداً ، وراح بيده يمسح على رأسها النائم على كتفه مرة أخري ، وهالته كثرة الدموع التي رآها تنساب من عينيها ، فأخرج منديله وراح يجفف لها هذه الدموع ، فأمسكت هي بأصابعه ، ونظرت إليه من خلال تلك الشبكة المرتسمة على وجهها ، وقالت بصوت أشبه بلفحات النار إنني أرتعش .. إنني أرتعش .. إن رأسي يكاد يتفتت .

ثم انفجرت باكية مرة أخرى وهي تقول متوسلة : إن رأسي يكاد يحترق خذني إلى جوارك .. فالتصق بها الشاب أكثر من ذي قبل وهو أكثر اضطرابا .

وعند ذلك قالت له : خذ رأسي إلى صدرك ثم ارتمت برأسها وكتفيها على صدر الشاب ، الذي من شدة حزنه راح يفسح لها المكان الذي تريد ، بينما كان ينظر إليها في حزن وهي ترتعش قائلاً : اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله .

ونظرت هي إليه من خلال شبكة الدموع مرة أخرى جيداً ومدت ذراعيها المضطربين وتحسست بيديها كتفيه ، وعنقه الضخم وراحت تبكي ، فازداد اضطراب الفتى ، ومال بعنقه الذي بين ذراعيها على رأسها الذي يحترق ، واقتربت برأسها من رأسه ، ووجهها من وجهه .. وأنفاسها من أنفاسه ، وعيناها من عينيه ، وراح ينظر إليها في إشفاق زائد وأسف مرير .. وهنا أغمضت عينيها وجذبت بذراعيها الملتفتين حول عنقه ، وجهه إلى وجهها ..

ولم تفطن بعد ذلك إلى ما حدث على وجه التحديد ... وإنما الذي تذكره تماماً أنها رأت جسدها كله ملقى في وسط العربة ، كما رأت ايضاً فيما رأت الشاب يتخبط في الظلام .. كما يتخبط تماماً الإنسان الذي يطارده في الليل ثعبان هائل مخيف [1] .

ومن بداية هذه المقطوعة نرى حرص الشاب على التقرب من الله تعالى بالاغتسال والوضوء ، وعلى نية السير على الأقدام مع المعلمة دون الجلوس بجوارها ، بينما هي حرصت على انتظاره في داخل عربة حنطور مبررة ذلك بتعبها ، وقد أرادت أن تجلسه بجوارها ، في هذا المكان المتحرك بما يحدثه من تموجات تجعل جسديهما في تلاق وافتراق ، مما قد يثيره نحوها من شغف باللقاء فيتحقق غرضها .. ومع عدم تحقق ما تريده من جلوسه لكنها ظلت تلاحقه – بحكم تواجدهما معاً في هذه العربة ــ ببعض الأسئلة الحرجة علها تلفت نظره إليها ..

وعندما استطاعت إقناعه بقبول دعوتها للغذاء ودخول السينما حرصت على أن تدعوه إلى مطعم للعائلات ، وهي تعلم أن هذا المطعم بما يحويه من مناظر خلابة وأطعمة فاخرة ستجعله مبهوراً طول الوقت ؛ حيث لم يصادف في حياته الماضية شيئا يشبه ذلك أو يقترب منه .

مما يجعله يعتقد بيقين أن وجوده بجانبها يتيح له ارتياد هذه الأماكن الفاخرة مراراً وتكراراً .

ومع وصفه لعاطفتها نحوه بأنها عاطفة لا يستشعرها إلا قلب أم إلا أنها لم تظهر ضيقها لذلك بل حاولت أن توفق بين نظرته إليها ونظرتها هي التي تريدها منه بعدما ضغطت بقدمها في حنان على قدمه تحت المائدة ورأت قدمه قد ارتعدت كأن

[1] أمين يوسف غراب ـ شباب إمرأة ... ص ١٨٠ ـ ١٩٨ بتصرف .

عقرباً قد لدغتها حيث قالت له ــ بعد أن مد عينه تحت المائدة ورأى يدها تحمل النقود له : إنك ابني فيما بيننا ولكنك رجلي أمام الناس .

وقد سر لذلك دون أن يفطن لما ترمي إليه ، وأنها تريده في النهاية طعاماً شهياً خاصاً بها .

وبعد انتهاء العرض استغلت فرحته بالفيلم واستمرار انشغاله به ، ومدت إليه يدها ليركب بجوارها العربة فلم يرفض ، حيث انتهزت ــ وهي ملتصقة به في العربة ــ هذه اللحظات التي خلت فيها الطريق ومالت برأسها على رأسه متظاهرة بالمرض ، وقد تركت جسدها كله يرتعش ، وهي ملتصقه به ، طالبة منه أن يحضر لها شيئا يخفف آلامها ، مشيرة له بأن يرسل الحوذي ، ولا يذهب هو .

وهكذا وجد الشاب نفسه في هذا المكان ، الذي هيأهما معاً بقصد منها ، وبصورة عفوية ، منه إلى التلاقي والالتحام .

وهكذا أيضا تحقق للمعلمة الانفراد به في هذه العربة وسط طريق مقفرة مظلمة ، حيث تمادت في بكائها وارتعاشها وهي ترجوه أن يأخذها إلى جواره ..

وهنا أدرك الشاب المؤمن الساذج تلك الخديعة التي وقع فيها ، وأحاطت به .. فدفع المرأة بعيداً عنه ، وفر هارباً ، يتخبط في الظلام ، كأنما يطارده ثعبان هائل مخيف.

وبالطبع كان لهذا المكان المتحرك دوره في تهيئة الظروف ودفعها إلى التفكير في لقاء ساخن ، كما أن هذا المكان بعدما انفردت به فيه هو الذي جعلها تقدم على ما طلبته به.

وبالرغم أنه بعد كل المحاولات في هذا المكان لم يستسلم لأنه مازالت به بقية من إيمان إلا أنه يعد هذا تمهيداً لما حدث فيما بعد ، وتحريكاً لعواطف نائمة غافية في قلب هذا الفتى ، هيأته فيما بعد لاقتحام الرذيلة دون وجل أو تردد .

٦- كان يتحدث الشاب إلى نفسه وهو يسير في الليل خائفاً مضطرباً .. كيف سولت لها نفسها هذا الإثم الكبير الذي دونه الموت من غير شك ؟ .. وكيف لم يفطن هو إلى غرضها ؟ ولكن هل هي بهذا الخبث ، بحيث جعلته يتخذها كأم له ، .. بحيث جلعته يظنها ملاكاً ، في حين أنها في الحقيقة شيطان رجيم .. في حين أنها تريد منه .. تريد منه ماذا ؟ وانفجر باكياً .. وواصل حديثه إلى نفسه .. إنه حقيقة استطاع أن يرد عنه الشر بمجرد أن فطن إليه ، فهل يستطيع ذلك مرة أخرى ؟

إن أسلم الأشياء ألا يعود مرة ثانية إلى هذا البيت . ولكن ماذا يصنع ؟ وأين يبيت ؟ إلى أن وجد نفسه بدون قصد يقف مترددا أمام بيت ويصعد سلمه ويدق جرس إحدى شققه فتفتح له سلوى ..

ومع أنه لم يخبر سلوي بكل الحقيقة التي تضايقه واكتفى بشكواه من مكانه الذي يسكن فيه [1] إلا أنه خرج مستريحاً بعد الوقت الذي قضاه معها ومع والدتها وبعد أن وعدته بأنها سوف لا تعود غداً إلى بيتها إلا بعد أن تجد له السكن الذي يطمئن إليه..

وهبط إلى الطريق وغمرته وحشته ، إلى أن بلغ أول الزقاق .. ورأي الباب قائماً تتوسطه الخوخة ذات الجنزير الضخم ، ومد يده التي كانت ترتعش وهو يبسمل ويستعيذ بالله ويتلو آية الكرسي .. ، وكان كل ما يطمع فيه ويرجو من الله تحقيقه هو

[1] وهذا دليل على أن المكان هو المؤثر الوحيد لما قد يوقعه فيما يخاف منه وأنه سيسهم أيضا فيما يدبر له مستقبلا .

أن يبلغ غرفته ، وأن يتمكن من إحكام بابها خلفه ، قبل أن يشعر به أحد ، حتى إذا ماطلع النهار استطاع أن يدبر من أمر نفسه الكثير ولو أدى به الحال إلى أن يعود إلى لوكاندة المدينة المنورة ، ولو أنفق بدل القروش الخمسة .. عشرة ، وبدل أن يمكث يوماً بغير طعام يمكث أياماً ، فكل ذلك أحب إليه مما يدعونه إليه ، وقد كان فعلاً حذراً الحذر كله ، موفقاً التوفيق كله ؛ فقد استطاع أن يعيد الخوخة إلى ما كانت عليه ، والجنزير إلى مكانه ، وأن يخترق الدهليز بدون أن يشعر به أحد ، وتطلقت أساريره عندما دخل غرفته بدون أن يراه أحد وأغلق بابها خلفه إغلاقاً محكماً .. ، وراح يجفف عرقه ، وينزع ثيابه ، بعد أن أشعل في المصباح كما أشعل في حذر ما بعده حذر وابور الجاز ، وأعد عليه كوباً من الشاي الثقيل الأسود الذي يساعده على السهر وجلس على الأرض أمام المصباح ، يقرأ الدروس ويذاكر ..

وراح يقرأ ويعيد ويحفظ ، وراح أيضاً يهتز ذات اليمين وذات الشمال وهو مغمض العينين يتلو ما يريد أن يحفظ بصوت مرتفع كعادته عندما يريد أن يحفظ جيداً ، وإذا به فجأة يسمع شيئاً .. لم يسمع بأذنه كما تعودت الناس أن تسمع بآذانها ، وإنما سمعه بقلبه وبإحساسه ففتح عينيه فإذا شفاعات منتصبة أمامه كالسهم أو كالهول ، أو كالقدر لا يعرف كيف نفذ إليه أهبط عليه من السماء ، أم خرج من الأرض ؟

ونظر إليها مرتاعاً ..، ورأى بنظراته المضطربة فيما رأى الباب الذي بين الغرفتين ، – والذي كان خلفه دولابها الكبير ــ رآه مفتوحاً بعد أن نقل الدولاب الذي كان خلفه من مكانه ، فعرف عند ذلك أنها حقيقة ، وأنها لم تكن خيالاً كما كان يظن وراحت تربت على كتفه التي ترتعد تحت يدها وهو تقول : ما الذي يخيفك إلى هذا

الحد؟ فلم ينطق وإنما انفجر باكياً ، وراح يولول كطفل ، فأخذته إلى صدرها وراحت تمسح على رأسه بيدها[1] ..

ومنذ هذه الليلة تغيرت أشياء كثيرة ولم يعد أبدا الشيخ إمام المجاور في الأزهر كما كان من قبل ، وانما غدا شاباً وسيماً ، وأفندياً أنيقاً للغاية ، يرتدي البذلة الفخمة ذات اللون الجميل ، والأزرار الستة المصفوفة على الجانبين ، والطربوش الأحمر الفاقع بدل العمامة والكاكولة كما راح المنديل الأحمر ورباط الرقبة الذي من لونه يزينان صدره ويتألقان نوراً على الصدر حتى شعر رأسه الخشن الكث الذي كان لا يعرف الحلاق إلا نادراً غدا ناعماً لامعاً مصففاً تتبعث منه رائحة عطر زكية ، تشمها على بعد أمتار .[2]

ومن خلال متابعتنا هنا للأحداث نرى الشاب إمام وهو في غاية من الخوف والاضطراب والفزع بعد أن أعلنت المعلمة شفعات عما تريده منه من فعل يرى أن الموت دونه.

ومع تفكيره في الهروب من هذا البيت ، وعدم العودة إليه ثم عزمه على تنفيذ ذلك بمجرد انتهاء هذه الليلة ، التي كانت قد مضى منها الكثير ، ولم يبق إلا جزء منها، حرص أن يدخل فيه غرفته في خفة وحذر شديدين ، حتى لا تشعر به المعلمة التي ظنها نائمة أو غافلة ، كما حرص أن يحكم إغلاق باب غرفته عليه ظانا أنه بهذا قد حصن نفسه وحماها ولم يدر أنه يحكم الإغلاق على نفسه وعلى المعلمة شفعات دون

---

[1] وهكذا نسج المكان خيوطه اللزجة كما يصنع العنكبوت حول فريسته فلم يستطيع "إمام الخروج من هذا النسج المحكم وسقط فريسة لهذه المرأة اللعوب امتصت فيها كل ما تبقى من أخلاقه وجردته من مثله وقيمه وجعلته فريسة له تلهو به كما تشاء .

[2] أمين يوسف غراب ـ شباب امرأة ص ٢٠٠ ـ ٢٣٥ بتصرف

ثالث في هذا المكان ، وأنه بهذا الإغلاق سيزيد من تعلقها به ، وانجذابها نحوه ، ومن ضعفه أمامها ، حيث لم يتصور أنها ستستعمل الباب الداخلي المقفل الذي يفصل بين غرفته وغرفتها وأنه سيصبح بعد فتحه ممراً آمناً بين الغرفتين بعيداً عن أعين الرقباء أو الناس .

وعندما قامت بهذا العمل ووجدها تقف أمامه شبه عارية في غرفته بينما كان منهمكاً في مذاكرته لم ينفعه بكاؤه أمامها وكثرة دموعه ، التي تدل على ضراوة الصراع الذي نشب بداخله بين صموده ومحافظته على نفسه وبين استسلامه وانحرافه، وقد نشب ذلك الصراع بفعل هذا المكان المغلق عليهما معاً في وقت يلجأ فيه الناس إلى مخادعهم ، ويستغرقون في نومهم .

وهكذا دخل الشاب إمام في صراع مرير بين الحاضر المحيط به ، بكل بوائقه وبين الماضي الناصع البياض الذي تربى عليه ولكن ضغط المكان جعله ينحدر تدريجياً إلى أن غرق في الرذيلة معها .

ذلك أن ما صنعته شفعات من إزالة الحاجز الذي كان بين الغرفتين جعلهما يعيشان في مكان واحد قرب بينهما ؛ فأصبح للمكان وظيفة يؤديها بنشاط وهمة وهي تقريب هذين الجسدين الجائعين ليعب كل منهما من الآخر قدر استطاعته .

والآن نعود إلى السؤال السابق : ما السبب فيما حدث بينهما ؟

والإجابة رأيناها ــ بعد معايشتنا لتلك الفقرات التي تم عرضها ــ تتمثل في سبب أساسي هو المكان .

نعم إنه المكان خاصاً كان أم عاماً .. ثابتاً كان أم متنقلاً .. إذ أنه أولاً بالنسبة للمعلمة شفعات نرى أنه لولا وجود إمام في هذا السكن [١] لما رأته عن قرب وتعلقت به [٢] وسمعت كل صوت وحركة في غرفته .. بل ولما اقتحمت عليه تلك الغرفة .. وتحاورت معه [٣] ، وتجسست عليه ورأته عارياً نائماً على سريره ولما تحايلت في الدخول عليه متزينة .. وطلبت صحبته في الخروج يوم الجمعة [٤] .. بجانب ما انتهت إليه من تحايلها على الدخول عليه ليلاً من الباب الداخلي الذي يفصل بين غرفتها وغرفته بقميص نومها دون خوف منها أن يراها أحد وهي تقوم به وبما تلاه .. [٥] .

كذلك لولا ضم العربة لهما [٦] في خروجهما من البيت يوم الجمعة لما ازدادت تعرفاً عليه ورغبة في التقرب منه .. ثم كان المطعم الذي مكنها من أن تضغط فيه تحت المائدة بقدمها على قدمه وهي تناوله النقود ليدفع الحساب وتخبره بأنه لا ينسى أنه رجلها أمام الناس .. ثم كانت السينما التي جعلتها تزداد سروراً به وهي تشاهد سذاجته وانبهاره في متابعته للفيلم [٧].

ثم أخيراً كانت العربة التي أقلتهما ليلاً بعد خروجهما من السينما والتي هيأت لها أن تلتصق به بحجة مرضها وأن تطلب منه أن يرسل الحوذي بدلاً منه ليشتري لها " برشامة " لتنفرد به في العربة وسط الطريق المقفرة .. حتى تصل لإخباره بحبها بعد

---

[١] وهو بداهة مكان خاص وثابت وقد تم وصفه بما فيه ومن فيه في المقطوعة الأولى .
[٢] المقطوعة الثانية
[٣] المقطوعة الثالثة
[٤] المقطوعة الرابعة
[٥] المقوعة السادسة
[٦] وهي مكان عام متنقل .
[٧] والسينما والمطعم مكانان عامان ثابتان .

أن التصقت به وتهيأت له[1] .. إلى أن كانت الليلة المشئومة التي انحدر فيها معها بفعل المكان المغلق عليهما ! ..

صحيح أنه كانت لدى المعلمة الأرملة الشابة نحو الرجال فتنة غير أنها نائمة .. وأنوثة غير أنها ساكنة .. وغريزة غير أنها خامدة .. وعاطفة غير أنها باردة .. لكن المكان بوجود إمام الشاب فيه أيقظ فيها الفتنة ، وحرك فيها الأنوثة ، وأشعل فيها الغريزة ، وألهب فيها العاطفة ، وأدخلها في صراع مرير بين هذا كله وبين كبريائها وسطوتها .. فكانت الغلبة والانتصار لما أثاره فيها المكان عندما وجدت نفسها فيه مع الشاب إمام فلجأت إلى ما لجأت إليه .. حتي أوقعته معها فيما وقعا فيه ..

أما الشيخ إمام فقد رأيناه يصمد كثيراً أمام ما أملاه عليه هذا المكان أو ذاك من تأثير عليه نحو المعصية ، كما صمد بجانب ذلك أمام ما تقوم به المعلمة من استفزازات وتحايلات وإغراءات وإغداقات بهدف استدراجه للمعصية معها ..

لكنه في النهاية برغم ما تربى عليه من قيم ومبادئ ، وما كان يحرص عليه من أهداف ومثل ، وما كان يتمسك به من عبادة وخوف من الله ، وما كان يتمناه من تحقيق أمنية والده المتوفي ، ورغبة أمه المريضة ، بجانب ما كان يرجوه من حصوله على الشهادة وتحقيق حلم صباه بالارتباط بسلوى ..

برغم كل هذا رأيناه يقع في ليلة مشئومة فيما حافظ كثيراً على عدم الوقوع فيه . وكان ذلك بسبب المكان الذي حاول مؤخراً الهروب منه[2] ثم بسبب تلك الحيل والإغراءات التي مارستها معه شفعات والتي ما كان يمكن أن تقدم عليها وأن تنجح

---

[1] المقطوعة الخامسة
[2] كما رأينا في المقطوعة السادسة

فيها لولا مواصفات هذا المكان التي شجعتها على محاصرته والتي شجعته أيضاً في النهاية مع ثورة غريزته على أن يقع معها في الفاحشة .

ومن هنا كان انهياره الأخلاقي واستسلامه لذلك ــ فترة من الزمن ــ فكان التغير الذي شمل جوانب كثيرة في حياته والتي لا تتفق بالطبع مع ما كان يحرص عليه ويصمد في سبيله البقاء عليه ..

وبنظرة متأنية – مع ختام هذا البحث – فيما تم استعراضه من أحداث الروايتين : " الأيدي الناعمة وشباب امرأة " نجد أن المكان في كل منهما ، كان له دوره الكبير ، وتأثيره العظيم في اكتساب القيم أو تغييرها ، بما يتبع ذلك من سلوك ، رغم اختلاف الروايتين الكبير ، في المضمون والأحداث .

وقد رأينا مما سبق عرضه في هذه الرواية : " شباب امرأة " كيف كان تأثير المكان – خاصاً كان أم عاماً .. ثابتاً كان أم متنقلاً – آسراً ومسيطراً على الأحداث ، وضاغطاً على الشخصيات ، ومغيراً بقوة لتلك القيم الأخلاقية الحميدة ، التي عرف بها " إمام " ، كما كان تأثيره قوياً ومدمراً على شفعات " ..

كما رأينا في رواية : " الأيدي الناعمة " ما اتسم به " البرنس " من قيم اجتماعية بغيضة ، بدت فيما بدا منه ، من الكبر ، والمكابرة ، وقمه الاستعلاء على غيره من بني الوطن ؛ لأنه كان يرى نفسه من طبقة عالية – طبقة الأمراء والنبلاء – ، وقد ورث ذلك عن آبائه ، من خلال ما كان يحيط به من سلطة وأبهة وخدم وحشم.. ؛ حيث كان قصره الذي شهد ذلك كله ، دافعاً له ، إلى التمسك ، بتلك النظرة المتعالية منه ، بما يضمه هذا القصر ، من أشياء تاريخية ، عاصرت أمجاده ، ويجد فيها نفسه .

وهكذا رأيناه ، شخصاً أنانياً ، يعطي لنفسه حقوقاً ، ليست لغيره ، من أبناء الشعب ، – حتى ولو كانت سرقة – ، في الوقت الذي يتهم فيه ، من يراه من غير طبقته ، بعدم الشرف ..

ورغم تجرده من اللقب ، والسلطان ، والجاه ، والمال ، وهجر بنتيه له ، وموت زوجته ، وانصراف الخدم عنه لفقره ، وبقائه وحيداً في هذا القصر ، الذي لا يملك حق التصرف فيه ، إلا أنه ظل متمسكاً بواقعة المندثر ، لا يريد الخروج منه ..، متجاهلاً لواقع الحياة الجديدة ، لا يريد حتى التعرف عن قرب على ما قد طرأ على الحياة من حوله ؛ وكان ذلك بسبب ما يضمه هذا القصر من أشياء ، وما تحمله هذه الأشياء ، من ذكريات ومشاهد وعلاقات ، تغريه بالتمسك بطابعه حياته الماضية ، والتي كان فيها الآمر الناهي ، حتى أصبح يتحايل من أجل أن يظل مخدوماً ، وألا يدفع ثمناًلما يتناوله.

ثم كان تغيره إلى الأحسن بسبب ما طرأ في جو القصر من اختلاف ،بدا في مشاركة كريمة ووالدها للسكن في هذا القصر ، مع " البرنس " والدكتور ، كما بدا فيما امتازت به كريمة ، في عيني " البرنس " من تقديمها للخدمة .. وحسن المعاشرة ، مع الأدب ، والوجه الحسن .. كذلك فيما أضفته ووالدها على القصر ، من جو أسري ، صحي ، ممتع ، تمثل – كما رأينا – فيما بدا فيه ، من حيوية ونظافة وتنسيق وجمال ومؤانسة وحركة ونشاط ، مع المشاركة في العمل والحوار وتناول الطعام ..

حيث استطاع القصر في حلته الجديدة أن يأخذ معه " البرنس " في طريق التغيير والتجديد ؛ فبدأ يألف هذا الجو الجديد في قصره ، والذي كان محروماً منه ،

كما يدأ يشعر ، مع نمو عاطفة حبه نحو كريمة ، بمدى حاجته إلى هذا الجو الأسـري الجديد .

لذا أخذ يتخلص تدريجياً ، مما كان يتسم به من قيم اجتماعية بغيـضة ، لتحـل محلها – كما رأينا – تلك القيم الاجتماعية الحميدة ، التي يدت على أقوالـه وأفعالـه ، فرأيناه يتخلص من تمسكه بماضيه ، ويتخلى عن رفضه لواقع الحياة الجديد .

ومن هنا – كما سبق القول – أصبح المكان – القصر بوضعه الجديد – تـأثير مغاير لما تم ذكره أولاً ، كما أنه قام بدورين قد يبدو أنهما متناقضان من حيث التشتيت في المرحلة الأولى ، والتجميع في المرحلة الثانية . وبذا ظل المكان هو البطـل وهـو المؤثر الأكبر ، على الأحداث والشخصيات .

وبذلك يمكن أن نقول : إن المكان هنا هو المسئول الأول عما حـدث وأن دوره الكبير في الأحداث أوضح من أن ينكر أو لا يذكر ، وبالتالي فنحن لا نبالغ إذا قلنا : إن المكان هو الذي حرك وظل يحرك كل الأحداث والتصرفات الشخصية ، بل هو البطـل الحقيقي في هذه الرواية كما كان في رواية " شباب امرأة " ..

## المراجع

- **د/ أحمد ابراهيم الهواري**

مدرس الأدب الحديث والنقد ــ كلية الآداب ــ جامعة الزقازيق

البطل المعاصر في الرواية المصرية ــ دار المعارف ١٩٧٩ م .

- **أمين يوسف غراب**

شباب امراة ــ بيروت ــ مطابع دار العلم للملايين ــ الطبعة الأولي ــ أبريل ١٩٥٨م .

- **توفيق الحكيم**

الأيدي الناعمة ــ القاهرة ــ مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ــ المطبعة النموذجية ــ ١٩٥٤م .

- **محمد جبريل**

مصر المكان ــ دراسات في القصة والرواية ــ الهئية العامة لقصور الثقافة٧١ــ فبراير ١٩٩٨ م .

- **محمود أمين العالم**

مجلة الهلال ــ نوفمبر ١٩٦٤ م .

- **محمود طاهر حقي**

عذراء دنشواي ــ الدار القومية ــ ١٩٦٤ م .

- **موسى سليمان**

الأدب القصصي عند العرب – بيروت مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ــ الطبعة الرابعة – ١٩٦٩م .

- **نبيل راغب**

قضية الشكل ال فني عند نجيب محفوظ ــ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ــ ١٩٦٧م .